الفصل السادس

على آثار جرذان الصحراء

تحركنا تجاه برقة فى الفجر وكان المطر متساقطا طول الليل ، فلما ارتفعت الشمس فوق الأفق شاهدنا الجديد من جمال الصحراء الخلاب فان الفضاء الشاسع الممتد إلى ما لا يصل إليه البصر ، امتزج وصار بساطا أخضر هادىء اللون مرهف الحس ، كأنه غادة تستحى أن تسفر بمحاسنها وتبرز بفتنتها ، و إن النباتات فى نموها الفجائى الذى بعثه نزول المطر ، لم تكن مجرد قطيفـة هائلة غطت أديم الصحراء ، بل كانت بحرا من المساحيق والألوان صبغت به الرمال وجهها الفتان ، ولم تمض بضع ساعات من النهار حتى لمسنا معجزة الحياة بعد الموت فى أزهار الصحراء بألوانها القوية الزاهية معارضة كل المعارضة تلكم الألوان الكامدة الضعيفة فى الشجيرات والأجمات الصبورة فى مغالبة الموت التى ألفناها على طول رحلتنا فى الصحراء القاحلة الجدبة . فمن مساحات تقاس بالأميال المربعة صبغت بالأحمر القانىء ، إلى غيرها ازدانت بالأصفر الفاقع ، إلى غيرها اختارت ضروبا مختلفة من الأزرق البديع . تفتحت كل هذه البدائع من ذلك الأخضر المستحى الذى شهدناه فى منبثق النهار ، وهكذا تحققت لنا رؤية الصحراء المتقلبة فى زينتها كأنها كارمن ميراندا Carmen Miranda حين تظهر على شاشة السينما بالألوان الطبيعية الساحرة .

وكلما اقتربنا من حدود برقة تجلت لنا آثار المعارك فى الحرب العالمية الأخيرة ، تضطرنا أحيانا أن نتفادى الطريق المستقيم إلى منحن واسع يخترق الوديان لكثرة ما دمر فى الحرب من قناطر وما أحدثه تفجر القنابل فى الأرض من حفر ولم نكن بهذا التفادى فى طمأنينة تامة فلم نكن لنأمن انفجار لغم من الألغام المختلفة المبثوثة فى مساحات واسعة من الصحراء .

وقد قطعنا أميالا كثيرة قبل أن نصل إلى «القوس الرخامى» « Marble arch » جزنا فى خلالها مقبرة العتـاد الحربى ، حيث عكف « أكالة المعادن » من الناس ينهشون لحوم الدبابات والعربات وعربات النقل والطائرات ولم يتركوها إلا هيا كل عُريت من كل شىء يمكن نقله ، لـكنهم تركوا الفضاء على سعتـه تكدست فيه براميل الزيت وصفائح البترول الفارغة ولم تكن استعملت بعد العلب الأمريكية من الورق المقوى .

كل هذه المواعين القيمة والمستعملة الآن (فناطيس) لنقل المياه على ظهور الابل استعملتها النساء فى وقت ما فى نقل الماء وتعاجبن باتزانها فوق رءوسهن سخرية بها وجهلا بقدرها . ويحار الفكر فيما زهدأ كالى المعادن فى هذه الأوعية الفاغمة .

ومهما يكن من أمر فقد حدا بى هذا الموقف إلى أن أعيد تقسيم طبيعة الصحراء بالوضع الآتى :

١ — الحمادة hammada وهى الهضاب الوعرة .

٢ — الأرج erg وهى البطاح الرملية [1] .

٣ — الأوعية الصفيحية tin-can أى صحراء المعادن الصدئة ومن وراء هذا الفضاء أو الفراغ المطلق ، يظهر « القوس الرخامى » وأظن أننى ظننت بادىء ذى بدء أنه قوس نصر فسيح . ولـكن اتضح أنه بناء مرتفع وضيق يشبه رأس إبرة الخياطة نفذ منه الطريق المستقيم كأنه الخيط ، وأحاط به الفضاء من جميع الجهات ، ولم ألبث أن شهدت قافلة من الابل تنفـذ من « عين هذه الابرة » ، ومنذ تلك اللحظة صرت أصدق كل شىء عن الصحراء . ولا بد أن موسولينى فى ساعة غفوة منه دلل هذا القوس وزقزقه على نشافة الـكتابة مع أنه لم يعد أنه تذكار أو أثر ذو شهرة جوفاء لم يستقر قراره بعد فى هل يكون قوسا أو معبـدا ؟ ومهما يكن من أمره فانه يرسم الحدود (كما وردت بها الأساطير) بين اليونان وقرطاجة ، فهو أثر خرافى لأنه يقع بجوار تلال الفيلانوى Philainoi ومعناها «طلاب الشهرة» وتقول الأسطورة أن القرطاجيين

(١) انظر ص ٣٨ (المعرب)

واليونان فى برقة سئموا استمرار الحرب بينهم بسبب عدم تعيين الحدود الفاصلة بينهما واتفقوا على أن يعيناها بمسابقة من مسابقات القوة — مقتضاها أن يرسل رجال من أفريقيا كمبعوثين من الطرفين وحيثما التقوا تكون نقطة تلاقيهم هى الحد الفاصل . ولأمر ما تأخر رسل اليونان ولم يقطعوا أكثر من ثلث المسافة حتى التقوا برسولى القرطاجيين Philainoi فاتهموهم بأنهم غشوا فى المسابقة ولكى يثيروا غرورهم (أو فشرهم) اقترحوا عليهما إما أن يسمحا بأن يدفنا على الحياة فى هذه المنطقة على أن تكون هذه البقعة هى الحد الفاصل و إما أن يسمحا لليونانيين بالتقدم إلى حيث يدفنان على الحياة فتكون نقطة دفنهما هى الحد الفاصل . فما كان من الفيلانوى إلا أن قبلا الاقتراح فدفنا حيين عند قوس الرخام الذى أصبح بعدئذ الحد الفاصل بين اليونان وقرطاجة وما زال إلى الآن الحد الفاصل بين برقة وطرابلس .

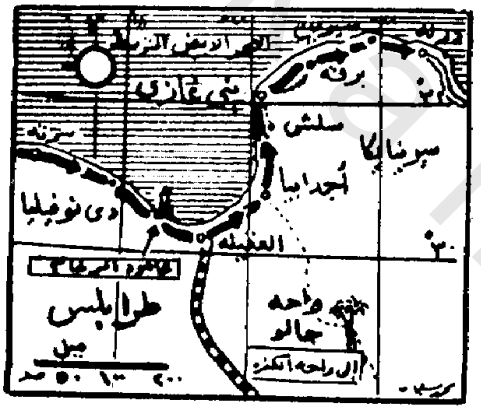

ثم قرأنا على لافتات الطرق « العقيلة » والعقيلة هذه كانت هدف أنظار الناس جميعا فى مدة الحرب فما كان أشد تباين المشاعر واختلاطها حينما كان يتردد هذا الاسم فى العناوين الرئيسية فى صحف الأخبار !

« تقدم جمبو و يلسو مع جيش و يفيل إلى العقيلة ثم رجع على عقبيه » .

« تقدم نيل رتشى مع حملة أوكينلك ثم تقهقر » « تقدم مونتجمرى اليها فى حملة الاسكندر ولم يتقهقر » فما أعظم ما كانت تثيره فينا من اهتمام حينذاك وما أقل شأنها الآن ؟ فها نحن أولاء نستطيع أن نمر عليها مر الكرام دون أن نعيرها لفتة فما هى إلا قلعة على تل صغير تحيط بها أسوار لا يزيد ارتفاعها عن سور أية حديقة ريفية ومسجد ومخزن للبضائع وكوخين مبنيين من الطين ودكانين أو كشكين مركبين من الصفائح القديمة وأحد هذين الكشكين يسمى نفسه « مطعما » مع أنه لا يحوى من البضاعة إلا بطارية ألمانية عليها طبقة من رمل الصحراء ، وكبود عربة

إيطالية ، ثلاث قطع شوكولاته من بضاعة النافى Naaf (أى مخازن تموين القوات البريطانية) صنعت فى سنة ١٩٤٢ ، أربع قطع صابون انجليزى أحرقتها شمس الصحراء ، علبتين من الطعام الأمريكى المحفوظ ، صفيحة بسكوت ملئى بثمر الخروب الجاف ، وعلبة سكر وأخرى للشاى الأخضر ، فلم يكن فى الحانوت طعام قط ولذلك كان طلبى منه مقصورا على فنجان قهوة — على الطريقة التركية — جهزه لى من ماء محفوظ فى صفيحة بترول وقدمه لى فى كأس وسكى ، وقد تناولته وأنا جالس على كرسى الطيار المنزوع من حطام طائرة ستوكا ألمانية . ولم يقبل العربى ثمن القهوة لأنه اعتبرنى ضيفا عليه ولكنه فى الوقت نفسه طلب خمسة شلنات ثمنا لقطعة شوكولاته تبلغ من العمر ثمانى سنوات (وكرر مرارا أننى ضيف عليه) ثم انتقلنا إلى رسميات تناول الشاى وأصبحت ملما بها وقد استعمل بدلا من موقد البترول المعتاد موقدا معدا لفحم الخشب فى حجم وعاء الشربة ونفخ عليه بمروحة من عيدان الصفصاف اليابانى ، ثم طبخ الشاى مع مقدار من السكر فى مسخنة (بكرج) صغيرة وصب مقدارا من المزيج فى فنجان وتذوقه (متظاهرا بعدم استحسانه) فأضاف عليه مقدارا يسيرا من الشاى ورده على النار وكرر هذه العملية أربع مرات وإن كانت لا تتفق مع قوانين الصحة فهى عنده قانون للضيافة لا يخالف مطلقاً . ثم قدم لى كأساً من الشاى مقترنة بالتحيات الكثيرة وفى النهاية تقبلت الثلاث الكئوس وهو العدد الالزامى الذى لا يجوز الاعتذار عنه ، وقدرت أن هذا الشاى ثلثه ريق وثلثه شاى وثلثه نعناع .

وعلى طول الساحل الممتد ٢٣٠ ميلا بين الحدود الغربية وبين بنى غازى لم يكن ثمت نبات مطلقاً ، لأن الأرض كانت مختصة بالرحل الذين حرموا من ارتيادها بسبب ما بث فيها من ألغام خداعة فى صور مختلفة أو ألغام صريحة . ولقد كنا نسمع أحيانا فى رحلتنا انفجارات ألغام من هذا القبيل . وهكذا كان ميدان القتال الذى انتهى منذ ٨ سنوات ، ما زال متعطشا للخسائر والقتلى . وكثير من الأماكن التى كنا نبرز أسماءها على الخرائط فى زمن الحرب أصبحت الآن خاملة لا تستحق

الذكر من أحد وليس من المستطاع أن أعين مكانها الآن ، ومكثت فى مثل هذه المناظر حتى وصلنا إلى ميناء أجدابيا Agbdabia وإنها بلدة مهمة أصابها دمار كثير فى مدة الحرب . ولكنى سوف أذكرها بأنها النقطة التى تأملت فيها صبيان البادية يلعبون كرة القدم وقت أن كان يُصلَح إطار إحدى عجلات عربتى الذى انفجر فى الطريق و بأنها واحة فى « صحراء الأوعية الصفيحية » وهنا على الأقل فى هذه القرية استطاع القوم أن ينتفعوا بالأوعية الصفيحية فقد ملأوها بالطين واستعملوها قوالب لبناء عششهم ، ولا شك أن الصفيح سيصدأ و يتآكل ولكن بعد أن يكون الطين جف وتحجر وصار كالآجر العادى .

ولما صرنا على مسافة ٢٠ ميلا من بنى غازى بدأنا نشاهد أدغال الزيتون والحقول المزروعة فى مدخل هذه المدينة وهى شوارع واسعة غرست فيها أشجار الكافور (يوكالبتس) من الجانبين .

و بنى غازى هى عاصمة برقة وهى إقليم تزيد مساحته على ثلاثة أضعاف مساحة بريطانيا العظمى . وفى حين أن الجزيرة البريطانية يسكنها الآن ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة فى مساحتها البالغة ٩٥٫٠٠٠ ميل مربع ، تجد برقة التى تبلغ ٣٣٠,٠٠٠ ميل لا يسكن الميل الواحد فيها إلا شخص واحد فمعظم مساحتها صحراء وجميع سكانها فى الواقع بدو رحل وهى بلاد السنوسى ذلك المسلم الصميم المتمسك بالدين أشد التمسك وسيدى محمد السنوسى الذى يرتقى نسبه إلى السيدة فاطمة (بنت النبى صلى الله عليه وسلم) والذى عاش فيما بين سنتى (١٧٩٦ — ١٨٥٩ م) أسس زاويته الأولى سنة ١٨٣٥ ، والسنوسية مذهب إسلامى سنى لكنهم أيضاً قبيلة من البدو الرحل الحربيين لذلك هم قوة سياسية يعتد بها وقد قاوموا الإيطاليين عند احتلالهم لبلادهم مقاومة عنيفة حتى أن المارشال جرزايانى الذى أرسل ليسكن ثورتهم اتخذ وسائل قاسية ضدهم وحاول أن يستأصل زعماءهم واضطر زعيمهم السنوسى إلى الهجرة أى النفى الدائم وانضم السنوسى فى أثناء الحرب الثانية إلى البريطانيين بعد أن حصل على وعد منهم باستقلال ليبيا سنة ١٩٤٩ وقد بر البريطانيون بوعدهم هذا حين منحوا ليبيا دستوراً وجعلوا

السنوسى الكبير أميراً عليها ، و بمقتضى قرار من هيئة الأمم المتحدة ستصبح ليبيا وطرابلس سنة ١٩٥٢ مملكة متحدة تحت عنوان « ليبيا المتحدة [1] » . واسم برقة القديم سيرنيكا Cyrenaica وهو مشتق من « سيرين » وهى المستعمرة اليونانية القديمة لذلك هى اليوم إحدي مدن الآثار المهمة فى العالم . وقد أسست فى القرن السابع ق . م و يروى هيرودوتس أن مؤسسها هو باتوس Battus من جزيرة طيرة اليونانية Thera (و إسمها الآن سانتورين Santaorin) وذلك حين استلهم معبودهم Dephi فى ما يعمله ليزول عنه عسر الكلام (الفأفأة أو التأتأة مثلا) وكان الجواب الذى تلقاه هو أن يؤسس مستعمرة فى « ليبيا » ولما لم يكن متأكداً من مكان ليبيا وما حوت من قطعان الماشية والأغنام قال «أتظن أنك تستغفلنى وأنا الذى شاهدتها من قبل ؟ »

لذلك اغترب باتوس كثيراً إلى أن نجح فى انتخاب «سيرين Cyrene» فى المكان الذى تهطل عليه السماء . ومما يرويه هيرودوتس أيضاً أن « سيرينايكا » تزرع ثلاثة مواسم فى السنة . والآن فى العصر الحاضر « برقة » Barce التى تشغل السهول المرتفعة البارزة تجاه ساحل البحر ما زالت ذات خواص زراعية جيدة و يبلغ متوسط مايسقط فيها من المطر سنويا ٣٠ بوصة . وكما استطاع الليبيون القدماء منذ ١٠٠٠ سنة . ق . م أن يربوا قطعان الخيل الرشيقة استطاع البريطانيون اليوم باستعمال الآلات الحديثة و بدون استعمال مخصبات مطلقاً أن يمهدوا مزارع فسيحة أنتجت محاصيل نفيسه من أجود أنواع القمح .

وقد دلت البحوث والمعاينات الحديثة أن جميع أرض جبل برقة يمكن تحويلها إلى مزارع شجر الزيتون على امتداد ١٠٠ ميل طولا و ٢٥ ميلا عرضاً أى مايساوى ١ ر ٥٠٠ ر ٠٠٠ فدان من أجود الأراضى ، وهذا الإقليم وطن أصلى للزيتون الذى ينبت فيه برياً (أى بدون خدمة) ومن المحاصيل التى جادت فى الإقليم ولم تفسد

---

(١) نفذ هذا القرار (المعرب) .

على مر الزمان الحروب والشعير والعنب . وأسفر الإحصاء عن وجود ٨٣٠٠٠ جمل ، ٤١٠٠٠٠ رأس من الغنم ومثلها من المعيز .

ويقول الخبراء بأنه يمكن الإقلال من المعيز ورفع عدد الغنم إلى ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ رأس . وإن الإصلاح الزراعى حتى فى الجزء الخصيب القديم الممتد فيما بين طبرق وبنغازى وحده — أى مع استبعاد المساحات المترامية مثل واحة الكفرة — يتوقف على استخدام الآلات الحديثة ، والمشاريع المقترحة لتحقيق ذلك تعتمد كلها على تكوين جمعيات تعاون زراعى تقوم بشراء جميع لوازم الزرع وأخيراً تبيع المحاصيل ومؤدى ذلك أن كثيرين من العرب الرحل يتهيأون للاستقرار فى المدن والمزارع .

وبينما نجد مصر وهى القطر المجاور مباشرة لبرقة تعج بسكانها البالغين ٢٢٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة يحاولون أن يجدوا مخرجا من وادى النيل المغلق عليهم نجد برقة تشكو الإقفار والحاجة إلى المزيد من السكان . لأن عدد سكانها الحاليين وهو ٣٣٠,٠٠٠ نسمة ليس بكاف لأن يستبقى الزراعة الجيدة — حتى فى المساحات المزروعة فعلا الآن فضلا عن محاولات توسيع الرقعة المنزرعة بالتقدم فى الصحراء ومحاولة إصلاحها .

وقد كان من الخطة المبيتة لدى الفاشست أن يدفعوا بالسكان الوطنيين إلى أعماق الصحارى ، ليفسحوا مجالا لمستعمرات بنى جلدتهم التى هجروها الآن . كما أنكروا على الوطنيين حقهم فى التربية والتعليم ، ولكن فتحت حديثاً المدارس الثانوية (اثنتان فى درنه وبنى غازى) وليس فى البلاد معهد يشبه مدرسة فنية أو كلية جامعية . وكانت نتيجة ذلك أنه لا يوجد فى البلاد من أبنائها خبراء مؤهلون للأبحاث بل لا يوجد فيها وطنيون أكفاء للادارة الزراعية ويرجى أنه بعد خمس سنين يتوفر جانب يسير من المدارس الثانوية التى تتسع لبعض أبناء القبائل .

وقد وصف الموقف أحد الوطنيين الأذكياء بقوله :

« إذا أردنا الاعتماد على مواردنا الحالية ، فسوف يكون أول قاض للقضاء فى برقة شاب لا يتجاوز سنه ٢١ سنة »

ولما سئل عمن عسى أن يكون ذلك الشاب أجاب بقوله :

« إنى لا أعرفه ولكنه على كل حال صبى بدأ تعليمه المدرسى حديثاً جداً » .

هذا هو الموقف فى دولة نالت الاستقلال الذى بذلت فى طلبه النفس والنفيس ولكنها سوف تبقى حقبة من الزمن غير متمكنة من التمتع الحقيقى بهذا الاستقلال إلا باعتمادها مالياً وأدبياً على المال والخبراء الأجانب .

وقداعتادت إيطاليا أيام احتلالها — لأغراضها الحربية ومآربها الاستعمارية — أن تجلب من رومة سنوياً ٤ ميزانية ليبيا .

أما بريطانيا وهى منتدبة للادارة فقط فلاتستطيع أن تساعد ليبيا إلا بما يساوى ٤ هذه الميزانية سنوياً وهو القدر الضرورى لاستمرار إدارة البلاد .

ولقد طرت فى جو برقة Barce فشهدتها كأنها بساط أخضر من الزرع تحف به الصحراء لا يحد البصر فيها حد حتى الأفق نفسه ، إذ اختلطت فيها السماء بالفضاء فلا تكاد العين تفرق بين هذه وتلك . والطريق الصحراوى الرئيسى ظهر كأنه شق مستقيم أحدثه محراث قوى . أما آثار أقدام الابل فما هى أكثر وضوحاً من دبيب القواقع ! ولعلها تشبه صورة وجه القمر أو صور الكتب الطبية وبخاصة للأمراض الوبيلة مثل البثرات ، والقراع ، والقرح ، وقد يعثر المسافر فيها من حين إلى حين على بقعة سمراء هى بقعة الزراعة العربية ، وعلى كل حال لاتكاد تخلو بقعة فى الصحراء من جذور الشجر والعشب مما يجعلها بالرغم من فظاعة منظرها ليست مقطوعة الأمل .

هذا هو ميدان القتال الذى تقدم فيه الجيش الثامن وتقهقر ثم تقدم وتقهقر وأخيراً تقدم ولم يتقهقر ، هكذا كان التاريخ يصطنع ويتقرر فى هذه البرية . ومع ذلك فانك إذا تحدثت مع أحد رجال الجيش الثامن نفسه الذين عانوا حرها وغبارها وابتلاءاتها ومحنها تجدهم مرضى بالحنين إلى الوطن « الصحراء » ويلحظ الواحد فيهم ذلك واضحاً كل الوضوح . فان الصحارى حتى ما هو من شكل الصحراء الغربية

والصحراء الليبية اسلطاناً يتملك المشاعر و إذا ما جاوزنا درنة إلى طبرق نلحظ أطراف الصحارى تبدأ فى التغير ، وتستمر تتغير ، فهناك الحزام الرملى الذى يتجمع بهبوب الرياح التى ترسم على وجهه تجاعيد تشبه تجاعيد الأمواج على سطح الماء ، أو ترسم منه الدوائر المتداخلة بشكل حلزونى عجيب شبيه بتعاريج بصمة الأصبع ، وقد يتفاقم الرمل فيصير تلا مرتفعامقوسا جهة الريح حاد الانحدار فى ظله .

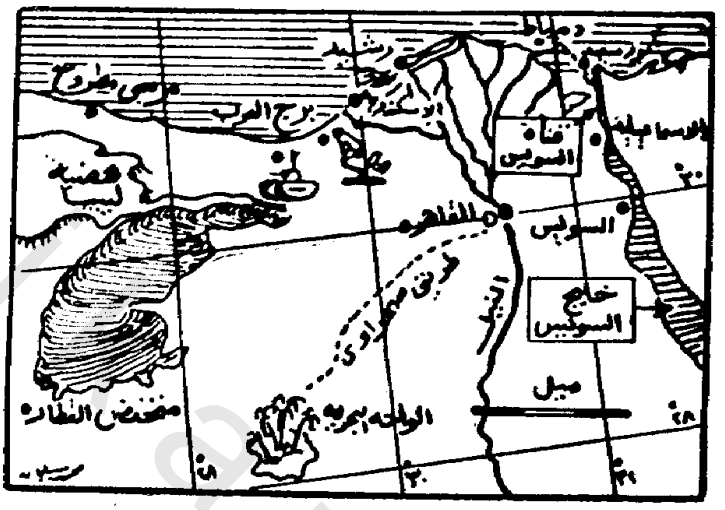

ثم طارت بنا الطائرة فى مستوى منخفض فوق بلدة العلمين El Alamean ومنها دخلنا مصر . وهذه هى النقطة التى صد فيها هجوم روميل حين كان على مسافة ٦٠ ميلا من الاسكندرية ، فكانت هذه المعركة من المعارك الحاسمة فى الحرب العالمية بل فى التاريخ كله . فياله من مكان ! ، لقد كان شاخاً تحت طيارتنا كأنه خريطة بالرسم البارز . فأمكننا أن نرى كل شىء فيه فيما بين ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى منخفض القطارة على مسافة ٣٠ ميلا جهة الجنوب .

نعم شاهدنا كل شىء فى هذا الميدان — وبالطبع فيما عدا العلمين — التى هى الآن كما كانت فى كل زمن مضى لا تعدو أن تكون محطة صغيرة على خط السكة الحديد ، قليلة الأهمية لدرجة أننا لانستطيع أن نضبط مكانهامن الجو ، وقبل الحرب الأخيرة لم تعن أية خريطة معتمدة باظهار نقطتها عليها . طرنا فوق مرتفعات « الرويسات » « وعلم الحلفاء » وكلاهما حصنان طبيعيان ، فهما مع منخفض القطارة

جزء من عنق الزجاجة التى فى مضيقها حوصرت قوى المحور فكان فى ذلك خلاص مصر وخلاص قناة السويس وخلاص الشرق الأوسط .

ومع ذلك كان منخفض القطارة أكثر المناظر تأثيراً فى النفس ولكنه تأثير عكسى مخيب للأمل ، فقد كنا نرى وهدته تكاد تخرج عن الصحراء وإن تجويفها الهائل الذى تبلغ مساحته نصف مساحة ويلز ببريطانيا ينخفس عن سطح البحر انخفاسا عظيما ، فكأنه الدرك الأسفل فى جحيم دانتى Dante, Inferno ولسنا فى حاجة لأن نكون عسكريين لنفهم سبب عجز روميل أن يضطر خط الدفاع البريطانى عند العلمين للتحول عن مواقفهم بالتفافه هو جنوبا إلى منخفض القطارة بالرغم من أن فرقة الصحراء البريطانية بعيدة المدى British Long Range Desert Group. كانت تتحرك فى مسالك هذا المنخفض ، حتى أن بعض المعلقين على الأنباء الحربية من رجال المحور وصفوا هذا المنخفض بأنه يقوم فى الدفاع عن مصر مقام عشرين فرقة حربية فى حين أن قمته الشمالية تبعد عن ساحل البحر الأبيض المتوسط بثلاثين ميلا وحده الشرقى يبعد عن سهل وادى النيل بمثل هذه المسافة ويبلغ طول المنخفض ٢٠٠ ميل، وعرضه ١٠٠ ميل .

وبينا نرى حافته العليا الشمالية ترتفع ٧٠٠ قدم عن مستوى البحر إذ بها تنحدر انحدارا شديداً إلى قعره المنخفض عن سطح البحر بنحو ٥٠٠ قدم . وكنا نرى فى أسفله حمأة فى المستنقع الملحى أو « السبخة » .

ويذكرنى هذا المستنقع ، بمستنقع « الشط الشرقى » — فى جنوب بلاد الجزائر — والفارق بينهما هو أن منخفض القطارة أسفل من سطح البحر والآخر أعلى منه.

ولا يمكن تعليل وجود المياه فيه بأنها من تجمع مياه الأمطار ، لأن متوسط ما يسقط فى منطقته هو بوصة واحدة فى السنة ، ومن الناحية الجيولوجية لا يتصور أنه نضح من البحر الأبيض المتوسط كما لا يمكن أن يكون متخلفا عن أحد العصور

القديمة ، لأنه لم يثبت قط أنه كان يصل إلى هذه المنطقة أى منفذ من البحر الأبيض المتوسط .

والمتأمل فيه من فوق يتبادر إلى ذهنه أنه بقية من بحر ميت ، لكن الصواب غير ذلك فهو ابن الرياح وليست المياه هى أصل تكوينه . فإن الرياح استطاعت فى عصر جيولوجى حديث نوعا أن تجرف طبقات الحجر الجيرى فسببت انخفاض هذا المنخفض . أما أن المستنقع الملحى يتبخر بمقادير هائلة أكثر مما هو حاصل فى المياه السطحية فتعليل ذلك هو أن نقصان مياه المنخفض متسبب عن تسرب مياهه فى مسالك جوفية أسفل من قعر المنخفض والى هذا أيضا يعزى وصول المياه العذبة الى واحة سيوه التى تبعد بنحو ٤٠ ميلا غربا عن المنخفض .

ومورد مياه هذه البحيرة الغائرة فى بطن الأرض هو جبال فى أقصى الجنوب ، ولكن هذه المياه العذبة فى طريقها الى المنخفض تعبر طبقات ملحة فتكتسب منها الطعم الملحى .

وخيل إلى أنه لا يمكن سكنى هذا المنخفض ولا استقرار الإنسان فيه بأية كيفية من الكيفيات ، فإن العبور فيه متعذر و إنه عقبة كأداء فى طريق أى نوع من أنواع المواصلات الأرضية ولكن ذلك البرزخ الضيق الذى يبلغ عرضه ٣٠ ميلا المسمى الآن « عنق الزجاجة » بين البحر الأبيض و بين المنخفض وهو الذى أدى أجل الخدمات للمقاتلين كان على الدوام فى العهود الأخيرة موضع تخيل المهندسين وكانت بحوثهم تدور حول إمكان حفر قناة أو قنوات تنساب منها مياه البحر الأبيض إلى المنخفض ، فتحدث مسقطا مائيا هائلا صالحا لتوليد الكهرباء (وهذا فى مستواه على عكس الشط الشرقى الذى وصفناه فى الفصل الثالث) هذه الكهرباء من أمس الحاجيات للقطر المصرى وليس هذا فقط لتشغيل الصناعات فى مديريات الدلتا بل لرفع وتوصيل المياه العذبة لبعض أنحاء الصحراء . ومن الاعتراضات الخطيرة على هذا

المشروع أنه يحتمل أن مياه البحر الملحة إذا استقرت فى المنخفض تتسرب إلى البحيرة الأرضية التى تمد عيون الواحات بالمياه العذبة الآن .

ولم يمض علينا أكثر من نصف ساعة فى هذا الطيران الذى أتاح لنا فرصة درس جغرافى قيم حتى وصلنا إلى وادى النيل ، ولا يملك نفسه أى سائح جوى — مهما كان متبرما من الطيران وزاهداً فى المناظر — من أن يعتمد على حافة النافذة ويطل منها على نهر النيل العظيم . ولاشك أنه كان لا بد من الطيران الحديث ليفقه الواحد منا فى لمحات قصيرة ذلك القول الصادق الذى أرسله هيرودتس فى وصفه لمصر بأنها « هبة النيل » .

ويستطيع الإنسان وهو محلق فى جو القاهرة — على مسافة نحو ١٠٠ ميل من البحر الأبيض — أن يشهد رباط الرقبة الذى يتحلى به الوادى متدليا إلى جهة الجنوب عند القاهرة يتوسطه شريط من اللجين اللامع ويحفه من كلا الجانبين شريط من سندس بديع . فاذا أدار وجهه ناحية الشمال لمح النيل يبسط قمته كالمروحة فى أسفل الوادى وقد انتشرت فيه الترع والمصارف وتلاحمت وتقاطعت بينها الحقول . فكأن الدلتا رقعة شطرنج هائلة . ويحد هذه الصورة البديعة من حافتيها إطار رملى اللون فيه تتربص الصحراوان لتقوما بالهجوم على الوادى ! الصحراء الليبية من غرب والعربية من شرق .

فما مصر إلا وادى النيل ، وفيما عدا الواحات المبعثرة فى صحراء ليبيا ينحصر خصب مصر بين سلسلتى تلال العرب وليبيا على امتداد نحو ٧٠٠ ميل .

وترى رقعة مصر على الخريطة تساوى أربعة أضعاف مساحة الجزائر البريطانية لكن الجزء المنزرع منها مقصور على ضفتى نهر النيل فهو أقل من مساحة مملكة الدانمركة ، ويعتمد الوادى فى خصبه وفى حياة سكانه البالغين ٢٢٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة على مياه منحدرة من خارج القطر المصرى إذ ليس هناك رافد واحد ولا نهير يغذى النهر فى داخل القطر إنما هو مدد النيل يأتيه من بحيرة فكتوريا فى أوغندا عن

طريق النيل الأبيض ومن بحيرة تانا فى الحبشة عن طريق النيل الأزرق . وتتمتع مصر بأقليم من أغنى وأخصب أقاليم العالم و بالرغم من ذلك فإن غالبية سكانها يعيشون فى فقر مدقع .

و إذا أراد باحث أن يتعرف وطأة زيادة السكان على البقعة التى يسكنونها فإليه مصر يجد فيها أوضح مثال لذلك كان من الواجب تدبير شىء لإنقاذ هذه الأمة المزدحمة ، ولا سبيل إلى ذلك إلا إلى الصحراء .

والماء متوفر فى النيل وفيه زيادة تكفى لاستصلاح آلاف الأميال المربعة من الصحراء . ولكن الصحراء هضبة مرتفعة ولا سبيل إلى ريها إلا باستخدام الآلات الرافعة ، وهذه متوقفة بدورها على القوة . والقوة بدورها معناها المال . ومياه الرى إذا كانت لا تتوفر إلا بالأموال الباهظة فلا فائدة منها .

وثمت مشاريع وخطط عظيمة لصيانة مياه النيل ولزيادة ضبطها فمن ذلك «مشروع المائة سنة» وهو من وضع المصريين والبريطانيين يمكن بواسطته تدبير المياه التى سوف تحتاج اليها البلاد فى نحو ١٠٠ سنة والتى تكفى لزيادة الرقعة المنزرعة ٢,٠٠٠,٠٠٠ فدان ومن مشتملاته إقامة سد أوين عند شلالات أوين فى أوغندا Owrens Falls — والتى ستزود هذا الاقليم بالكهرباء وفى الوقت نفسه تزود وارد المياه إلى مصر ، وتشمل أيضاً حفر قناة فى الأحراش التى تعوق جرى المياه عند منابع النيل وتجعلها تنتشر فى البطاح الواسعة فتتعرض للتبخير والضياع سدى ، و يؤدى حفر القناة المذكورة إلى اتصال منابع النيل بمجراه العميق فيمتنع انتشار المياه وتتاح بذلك أيضا فرصة زراعة ٢,٠٠٠,٠٠٠ فدانا فى السودان أكثر مما يزرع فيه الآن .

هذا جزء من الخطة ، أما الجزء الثانى فيشمل إقامة سد على بحيرة تانا فى بلاد الحبشة ، ولكن يؤخذ على هذه الخطة كلها — كما قال لى مصرى كبير — أنها تجعل رخاء مصر رهينة فى قبضة أمم أجنبية عنها .

وهذه حقاً ناحية قوية جدا من نواحى النظر ولكنها من جهة أخرى مظهر من مظاهر التعاون الدولى واعتماد كل دولة على غيرها .

والمصريون منتبهون لأهمية إصلاح الصحارى فقد أنشأت الحكومة فى ضاحية هليو بوليس من ضواحى القاهرة معهداً خاصاً بالصحراء ، وأنه مبنى فخم إذا تم إعداده بأدوات البحوث المطلوبة يصبح من أهم المعاهد من نوعه فى العالم .

وقد تقابلت مع يوسف ميلاد (بك) مدير تنمية نباتات الصحارى وهو أحد رجال مصر الذين ذللوا الصحراء ، صاحبته فى رحلة من القاهرة إلى العلمين وهى التى طرت فى جوها عند دخولى مصر و بعد مغادرتنا القاهرة سلكنا الطريق الصحراوى وهو الذى طرقته آلاف الرجال وآلاف السيارات ، ومع ذلك فإنه لم يتحول إلى « صحراء علب الصفيح » مثل ذلك الذى شاهدناه فى ليبيا لأن « أكالة المعادن من الناس » لم تترك منها فى هذا الميدان شيئاً قط والشىء الوحيد الباقى من مخلفات ذلك العهد فى هذه الصحراء المصرية هو براميل الزيت الفارغة وقد ملئوها رملا ودهنوها باللون الأبيض وثبتوها فى الطريق لتكون معالم ترشد السيارات المسافرة ليلا ، وفى منتصف الطريق إلى الأسكندرية مررنا بلافتة كتب عليها إلى « النطرون Natrun » وكانت المناظر عادية ومألوفة ولكننى لم أستطع تعليلها حتى قال لى ميلاد (بك) أن النطرون معناه الصوديوم Sodum أو الملح Salt ، و إن « ناتريم — matrim هو ذلك العنصر الذى يظهر فى جدول العناصر برمز « ص أو Na= » وسوف يظهر لك من مراجعة القاموس أن « natrim » ترجع إلى أصل لاتينى ، ولكن ميلاد (بك) يصمم على أن هذا الاسم مثل كثير غيره من أسماء العناصر والألفاظ العلمية هو من التراث العلمى العربى .

و « النطرون » هو « الوادى » الذى فيه المصانع الرئيسية لهذا الملح فى مصر ، ولكنه مع ذلك يتميز بشهرة أخرى فلعله هو الأصل الأول الذى أسست على نهجه الأديرة المسيحية وما زالت توجد فيه أديرة قبطية ترجع إلى أوائل العهد المسيحى . والأقباط هم المسيحيون الوطنيون فى مصر والحبشة ، ورئيس الكنيسة القبطية

هو بطريق الأسكندرية ورئيس الكنيسة الحبشية أيضا . وهو معتبر خليفة القديس مرقس St. Mark الذى يقول المصريون إنه هو الذى أدخل الديانة المسيحية فى أفريقيا

ومع أن نظام الأديرة المسيحية يرجع فى بلاد الغرب إلى عصر القديس بندكت St. Benedict (حوالى ٤٨٠ — ٥٤٤ م) نجده بمصر قبل ذلك بنحو ٢٥٠ م ، ومؤسس هذا النظام هو القديس أنطوان St. Anthony خرج عن جميع ثروته وهجر الأهل والمدن إلى الصحراء فلحق به أتباعه وتلاميذه حيث كونوا مجتمعاً محليا خاصا بهم وقد توفى بالغاً من العمر ١٠٥ سنة .

وعندما كنا قبالة الأسكندرية عطفت بنا الطريق إلى الغرب تجاه العلمين . فمررنا بمضارب خيام البدو وهنا لفت نظرى ميلاد (بك) إلى شىء له دلالته ، وهو أن البدو الرحل فى وسط مضارب الخيام بدءوا يبنون الأكواخ أو بعبارة أخرى أنهم بدءوا يستقرون فى قرية ، والذى شجعهم على ذلك هو ما أدخلته الحكومة حديثاً من زراعة الزيتون والتين فى هذه الأقاليم ، وكفى بهذا المشروع مشجعاً للبدو على الاستقرار ، والكف عن الترحال .

والعادة المستقرة من قديم الزمن فى هؤلاء البدو ، وفى غيرهم من بدو الجهات الأخرى فى الصحراء ، هى أن البدوى يحرث بقعة من الأرض أو بعزقها أو يقلبها بأية وسيلة ويبذر فيها حب الشعير ، ثم يجول جولاته فى الصحراء فاذا آن أوان حصادها ، عاد وجمع المحصول .

فلنزرع له شجرة ونؤكد له أنها شجرته لايشاركه فيها غيره وأنها لن تقلع ، وإذا به يتعلق بها ويغار عليها ويحرسها ويلازمها ملازمة تامة مترقبا نموها وإثمارها . وفى أثناء ذلك لا بد له من أن يزرع الأرض المجاورة للشجرة . كما شاهدنا فى هذه المنطقة وهكذا بالتعود الجديد يتحول إلى حضرى مستقر . ويتحول إلى فلاح ولن يعود بعدئذ بدويا رحالا .

وكان « برج العرب » Burg El Arab فى أحلك أيام حملة الصحراء المركز الخلفى للقيادة العامة ، وهو يقع على حافة بحيرة قليلة العمق داخلة من البحر الأبيض

عندها كان مونتجمرى Montgomery يضع الخطط لقوافله . وعندها أيضاً كانت قوى السلاح الجوى تبدأ خطتها ، ولـكنها الآن أصبحت مركز أبحاث صحراوية زرته وأعجبت به أيما إعجاب .

فوجدت بيتا قرويا بنى حديثاً فى صميم الصحراء واستوفى حظـه من الاتساع وأسباب الراحة . حتى لـكأنه « فندق فخم مترف » « de luxe hotel » ولم يكن من يراه ليستطيع أن يصدق أنه محطة أبحاث — ما لم يخبره أحـد بهذه الحقيقة — وغاية مايستطيع أن يصدقه أنه «استراحة» غريبة كل الغرابة، لمعمل أبحاث صحراوى .

وقد كان يوجد فى هذه النقطة وفى مرسى مطروح Mersa Matruh قبل الحرب الأخيرة مزرعتان تجريبيتان للزراعات الصحراوية ، ولـكن المعارك الحربية التى دارت حولها قضت عليهما ورجعت بهما إلى طبيعتهما الصحراوية ، فأصبح الوضع ميئسا من نجاح المشروع ، وهكذا ذهبت هباء جهود سنين عديدة ، وأكثر من ذلك أن الصحراء أصبحت لا تجذب الهمم إليها . لـكن « ميلاد » وأعوانه رأوا أنه يجب قبل محاولة جعل الصحراء تجتذب النباتات محاولة جعلها تجتذب الناس لزيارتها أو الاقامة فيها . فيجب إغراء رءوس الأموال والموظفين إلى الاقامة فى هذه البرية . وعلى ذلك قبل أن يحاول إرجاع معمل الأبحاث أو يسترد له المزارع التجريبية عنى كل العناية بإيجاد أسباب « للبيع » فى المنطقـة فأشار على الحـكومة بأن تستعيض عن الخيام لسكنى الموظفين « فندقا فخما » وفى هذا الفندق استطاع أن يقيم الحفلات لأكابر القوم من أرباب المال الذين يقبلون استثمار مالهم فى هذه الجهات فى مشاريعه العملية .

وبذلك استطاع أن يلفت أنظارهم ويبعث فيهم « العناية بالصحراء » بأفضل الشروط والأحوال المغرية . ومن مظاهر نجاحه أن أقبـل أساتذة الجامعات ورجال العلوم وغيرهم على قضاء عطلة الأسبوع فى هذه الجهة قادمين من الأسكندرية والقاهرة وقصد بذلك أن يعتمد على هؤلاء الزائرين فى تدبير الموظفين لمشاريعه .

وقد غرس حول الفندق حديقة نباتات تجريبية فهى أولا تزيد فى محاسن البقعة

وترغيب السائحين فى زيارتها ثانياً تعطى الفرصة لاختبار الأرض لمعرفة أى أنواع النباتات والشجر تستطيع أن تنبت وتعيش فى الصحراء . وحينئذ استطاع أن يهيب بالزائرين قائلا « تأملوا كيف يمكن جعل الصحراء تزدهر » ، وقد نجح المشروع بأسرع مما كان يتصوره أو جربه أحد فى أى مشروع حكومى اطلعت على تاريخه فى المذكرات والملفات ومشاريع البحوث ، والحسابات الختامية المغرية التى استطعت أن أعثر عليها . وقد هالت النتيجة السائحين من وزراء وغيرهم فقد تم إصلاح ١٢٠٠ فدان فى الصحراء وزرعت فعلا .

ومتوسط سقوط المطر فى هذه المنطقة فى العشر السنوات الأخيرة هو ٦ بوصات سنويا ، ويوجد أيضاً فى المنطقة كثير من الآبار ولكن مياهها تحتوى على مقدار من الملح الذى يضر الزراعة ويمكن تخفيفه بمياه المطر . وقد استخدم الخبراء الأساليب الرومانية القديمة لتوفير المياه ، فأفادوا من بعض التلال المنخفضة المجاورة والتى عرتها العوامل المختلفة حتى أصبحت صخرا صلدا ، واتخذوا منها مستودعات لتوزيع المياه watershed ووجدوا أنه يمكن للفدان الواحد إذا استخدم بهذه الكيفية أن يروى ثمانية أفدنة من الأراضى القابلة للزراعة ، وتمكنوا بذلك أن يرووا ١٢٠٠ فدان من الصحراء فأصبحت هذه محطة تجارب أنتجت بساتين غناء من الفاكهة واللوز والتين والخوخ والكروم ، وقد شاهدت فى حقول التجارب آلاف الأنواع من نباتات العالم المختلفة ، حتى شجر الصنوبر شاهدناه غريباً يعلوه غبار الصحراء ولكنه ناجح ومزدهر ، وأوشكت زراعته تفشل إلى أن لقحه خبراء النبات بالفُطَر من « عائلة ميكوريزا » Mycorrhiza family ، التى نمت على جذور الشجر بطريقة ما فاستطاعت أن تسحب من التربة العناصر الضرورية لنمو هذا النوع من الشجر . والتى لم تكن ممكنة لولا هذه التجربة العلمية .

وقد اتسعت وتنوعت أسباب الراحة فى برج العرب حتى أصبحت يفيد منها كبار الزائرين ، وتشمل دواب المزارع نفسها فيرى فيها الزائر حظائر الطيور وزراب الدواب نظيفة ومرتبة كأنها البيوت الخلوية الجميلة شهدنا فى داخلها أنواعاً مختلفة من

الدجاج ومن بينها دجاج رومى يزن الواحد منها ٢٥ رطلا وأنجح هذا الدجاج الرومى نوع مهجن من النوع الأمريكى مع النوع المصرى اتضح أنه النوع المثالى للصحراء . وهُجّن أيضاً نوع من الغنم من غنم سسكس Sussex بانجلترا مع النوع المصرى فاستلفت هذا النوع المهجن أنظار العرب كما هُجن أيضاً نوع من البقر المسمى Jersy مع بقر دمياط المصرى الذى هو من نوع البقر الصغرة الذى ذكرته فى موضع آخر [1] فكان المولد منها يعطى ١٢ لترا من اللبن يومياً .

ولكى يدرك الانسان مدى قيمة الخدمات العمليـة التى أسدتها هذه المحطة التجريبية فما عليه إلا أن يغادر رقعة المزارع التجريبية ويتجه على الساحل غربا إلى العلمين فيشهد على طول هذه المسافة زراعات مستقرة للعرب الرحل . وليست زيارة هذه المحطة مقصورة على الوافدين من المدن بل صار يتردد عليها رجال من قبائل العرب الذين فضلا عن مشاهدتهم المعامل العجيبة التى تذهلهم يعنون عناية خاصة بمشاهدة الحقول المزروعة للعرض العام وبرون أدغال الزيتون ومدرسة الصناعات المنشأة حديثاً فى نطاق المحطة لكى تبعث فى العرب ملكاتهم الصناعية القديمة التى كادت تنسى بينهم .

وكأن الموقف حلم من الأحلام حينما شاهدنا عربياً فى ثيابه الفضفاضة وعمامته الكبيرة يتوكأ على عصا يتجول حول مزرعته وكما يعمل أى مزارع فى بريطانيا وقف يشير بيده إلى أرضه المزروعة والتى كانت لعهد قريب بلقعا من الأتربة تثيرها أخفاف الابل فى مشيها ثم يصيح بأعلى صوته مؤنبا الفلاح الذى يخطىء فى تنقية الأعشاب من الزرع ، ثم تسمعه يباهى بمحصوله الجيد .

فقد جاء محصول أحد شيوخ العرب من مزرعـة مساحتها فدان ونصف فدان فأنتجت ١٦٠٠ كيلو جرام من زيت الزيتـون تساوي من الثمن ٤٠٠ جنيه ، وقد نتجت هذه المقادير من أشجار زُرعت بارشاد الخبراء الزراعيـين فى أرض قبيلة هذا

---

(١) فى ليبيا . (العرب)

الشيخ منذ أن وضعت الحرب الأخيرة أوزارها إلى الآن وقد أعطيت فسائل الشجر وخبرة الخبراء كلها للمزارعين مجاناً تشجيعاً من الحكومة للبدو على الاستقرار .

ولقد خرجت مع ميلاد (بك) فى السيارة تخترق الأرض التى كانت مركزاً لقيادة الحرب المستترة تحت المناظر الخداعة camouflaged فى مرحلة واقعة العلمين والتى كان من المستحيل على أى إنسان أن يعثر عليها بدون مرشد .

و بينما نحن نعود أعيننا على النظر فى الظلام بعدأن مرنا طويلا فى الشمس المتوهجة صاح بى ميلاد (بك) قائلا : « إحذر العقارب ! » فإن هـذه المخلوقات البغيضة ذوات المخالب القوية والحمة السامة هى وحدها التى عثرت على المخابىء المستترة تحت الأرض فكشفت جوها الرطب اللذيذ فعششت فى حواشيها . وقد كان هذا المركز مخبأ فسيحاً يحتوى على ١٢ حجرة منها حجرة حربية فسيحة كانت ترسم فيها الخطط وفى الحق أن مبناها كان مفخرة للهندسة وعملا جليلا لفرقة الأعمال الهندسية ونموذجا بديعاً من نماذج مبانى الأسمنت المسلح .

وعلى مسافة ميل من هـذه البقعة إلى داخل الصحراء شيد مخبأ آخر أسبق من المخبأ السابق بنحو ٢٠٠٠ سنة ، ولكنه لم يكن مخبأ ضد القنابل بل مخبأ شاده الرومان لخزن مياه الأمطار ، فلما اقترح ميلاد (بك) زيارة هذا الصهريج توقعت أننى سوف أرى شيئا ضئيلا لا يتناسب مع ماشاهدته فعلا وإذ به كهف كبير تحت قبو هائل تشعبت منه ردهات فسيحة ، يبلغ ارتفاع الحجرة الرئيسية فيه ٨٠ قدما ، وحالما خطوت أدنى درجة من درج السلم كدت أنزلق إلى عمق المياه ولكنى أنقذت فى الوقت المناسب ، وهذا المبنى جدير بأن أعتبره أفضل مبنى من نوعه شاهدته فى جميع رحلتى ، كانت تجرى إليه من جميع الجهات مياه المطر من التلال إلى المبازيب إلى داخل الخزان ، كانت المياه تمر قبل وصولها إلى الخزان العميق على حواجز أو مصافى قليلة العمق لحجز الطمى العالق بالمياه حتى لا ينساب مع المياه إلى الداخل و يردم الخزان . وهذا الخزان صالح لاختزان المياه لعدة سنوات ، و يوجد مئات أمثاله فى الصحراء المصرية .

ومنذ أعيد استخدام هذا الخزان أصبحت العرب الرحل تفـد إليه من مسافة عشرة أميال أو أكثر لتأخـذ كل جماعة منها القدر المقرر لها من المياه . وتبقى فوهة الخزان مقفلة خشية أن يسطو عليه لصوص المياه ، وتسحب المياه منه بدلاء يجرها حمار ، ونستطيع أن نفهم على البداهة أن هذه المياه المحفوظة لتستعمل لعدة سنين وليس فقط لعدة أشهر لاتحفظ عذوبتها كاملة ولـكنها تحفظ حيويتها بل تعج بالحياة!!

فما كان أحد ليستطيع أن يحرضنى على تذوقها بعد أن رأيت بعينى الدعاميص الحمراء (صغار الضفادع) والقشرة من الـكائنات الدقيقة تحيم على سطحها كأنها صدأ من الأحياء ، ومع ذلك فـكل هذه المنفرات لا تزعج البدو ولا يبالون بها . وكل ما يعملونه هو أنهم يصفونها بنسيج رقيق .

وبرج العرب هى عاصمة محافظة الحدود ومركز حكم الإقليم الممتد بين الدلتا غربا — إلى حدود برقة . وقد قابلت عندها رجلا من أولئك «الذين ذللوا الصحراء» وهو ضابط بريطانى كان محافظا فى هذه المنطقة على عهد الحماية البريطانية على مصر وقد أغوته الصحراء مثل الـكثيرين من البريطانيين غيره حتى صمم على ألا يغادرها .

هذا هو الصاغ ويلفرد جنتج براملى المعروف لدى بدو الصحراء الغربية باسم « راملى بك » . وقد دعانا لزيارة منزله والحق إن هذا المنزل حصن أسسه هو لنفسه على الطراز العربى وبناه بأحجار منقولة من الاسكندرية أى من مسافة ٣٠ ميلا وقد استقبلنا عند البوابة الـكبيرة وإذ به رجل صغير الجسم لـكنه ذو حيوية ونشاط عظيم بالنسبة لسنه التى هى ٧٩ سنة . وقد ضرب لونه إلى السمرة من أثر الستين عاما التى مكثها فى الصحراء .

ولم تـكن وظيفته الأولى فى مصر بالوظيفـة المشوقة فإنه عين فى أول أمره سكرتيراً للمدير العام لمصلحة الجمارك ، ومن المفاجآت أن تـكون وظيفته التالية مديراً لحديقة الحيوانات بالقاهرة وحدث أنه وهو فى الخامسة والعشرين من عمره قام متخفياً بمغامرة خطيرة على ظهر الجمل بين واحتى الخارجة وسيوة فى الصحراء الغربية وهذه

مسافة ٣٠٠ ميل عبر الصحراء الرهيبة المريبة ، وعلى ذلك كان هو أول سائح أوربى دخل واحة سيوة منذ عهد كاشفها المسمى « رولف » Rohlf سنة ١٨٧٥ وقد كانت فى خارج نطاق الأمان المسموح بزيارته لأن العرب كانوا شرسين لا يحفلون بإكرام الغريب بل يقابلونه بالسخط والعداء الشديد .

و بعدئذ كان فى مقدمة الموظفين المدنيين الذين عينوا فى السودان عقب أن استرجعه كتشنر واحتل مدينة الخرطوم ، فقام « براملى بك » بعمليات المعاينات والمساحة الأولى فى السودان . ثم كان أول من عين محافظاً لشبه جزيرة سيناء وهذا فى سنة ١٩٠٥ . وتدرج إلى أن أصبح من أهم رجال المخابرات فى الصحراء فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، و بانتهاء الحرب الأولى عين محافظاً على الصحراء الغربية وشغل هذه الوظيفة إلى أن أحيل إلى المعاش سنة ١٩٣٠ .

وأخيراً برز ثانياً من تقاعده فى أثناء الحرب العالمية الثانية وعاد لخدمة المخابرات مرة ثانية .

وجدير براملى بك أن يعتبر كل قبائل الصحراء أصدقاء له ، ولأنه استطاع أن يتقن التفاهم باللغة العربية و بوسائله السلمية الودية استطاع أن يزيل من بينهم كثيراً من الأحقاد وأن يجعلهم يتحاكمون إليه فى برج العرب ، وهناك بما أوتى من ثقة الطرفين ومحبتهم له — استطاع أن يصغى إلى حججهم ، ثم يصدر حكمه فى موضوع النزاع ، وكان حكمه على الدوام موضع احترام الجميع .

وقد رغب عن الكلام فى حوادث الحرب والحملات العجيبة التى لا يصدقها العقل وأقبل يتحدث عن رغبته فى نماء الصحراء وجعلها إقليما معمورا و بدت منه أمنية لذيذة وهى أن يرى قبل موته جميع الإقليم الممتد بين الإسكندرية والحدود الغربية خصيباً ومنزرعا . وروى لنا أنه كان على الدوام يؤكد للحكومات المصرية المتوالية أن

الدفاع عن حدود البلاد الغربية يتطلب اتساع الزراعة تجاه هذه الحدود المفتوحة لعدم وجود السكان فيها فلاسبيل إلى تأمينها إلا بنشر الزراعة وتعميم الاستيطان فيها حتى يقف السكان غيرة منهم على مواطنهم فى وجه المغيرين ويتيقظون فى مراقبة حركاتهم حرصا على زراعتهم وأوطانهم[1] .

---

(١) طبعت هذه الفصول سنة ١٩٥١ ، ولو قدر لكاتبها زيارة مصر بعد ثورة الجيش فى ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ وشاهد ما حدث على عهدها من إصلاح زراعى شامل وبخاصة فى أطراف الصحارى لأضاف إلى كتابه صحيفة مجيدة لا يكاد العقل يتصور كيف خطرت على بال مبتكريها فأحكموا إخراجها إلى حيز الوجود لكنه « علو الهمة من الايمان » .

هذه هى مديرية التحرير التى أسست وأزدهرت فى ثلاث سنين تقع غربى مديرية البحيرة فى جوف صحراء ليبيا أتت بالعجائب فقد أصلح فيها فعلا نحو ٢٢٠٠٠ فدان زرع منها فعلا نحو ٦٠٠٠ فدان من الفاكهة والخضر والحبوب الغذائية وأنشئت فيها مزارع لتربية المواشى والدواجن ومصانع المنتجات الزراعية والحيوانية ومؤسسات لتثقيف السكان ورعاية صحتهم والترفية عنهم . وهذه بالكورة لمشروع بعيد المدى يعتمد فى تدرجه على إتمام مشاريع كهربة خزان أسوان ومشروع السد العالى فى جنوبى أسوان أيضا — وكل آت قريب بأذن الله تعالى — لو شهد المؤلف ذلك وغيره كثير — لوضع قادة الثورة ومجلس إدارة مديرية التحرير — ومديرها المنتدب الصاغ مجدى حسنين فى طليعة « رجال ذللوا الصحراء » .

(المعرب)

الفصل السابع

الخروج إلى سيناء فى سيارة بالأجرة

قد لا يصدق أحد أن يغادر شخص الفندق وينسل منه إلى سيارة بالأجرة ليجتاز بها صحراء سيناء ويترسم فيها خطى موسى (عليه السلام) ومعه بنى إسرائيل ولكن هذا هو الذى حصل : وكانت الخطة المرسومة لى قبل وصولى إلى مصر أن أقصد إلى سيناء لأطلع على مشروع إصلاح زراعى فى وادى العريش ، الممتد على ساحل البحر فى شمالى شبه الجزيرة . ومع ذلك حالت دون ذلك الحوائل . فقد حصل لأول مرة فى رحلتى السلمية أننى أعلمت بأن حالة حرب مازالت قائمة فى الشرق الأوسط بين العرب و إسرائيل وكانت العريش فى خط دفاع مصر على الحدود بينها و بين إسرائيل . فبذل أولوا الأمر قصارى جهدهم ليثنونى عن التورط فيما ليس من أغراض رحلتى وأخيراً نجحوا فى تحويلى عن ذلك الركن من سيناء فعزمت أن أتجه إلى برية « التيه » الواردة فى الكتاب المقدس وشوقنى إلى إتمام هذه الرغبة أحاديث على شافعى (بك) مدير رى الصحراء .

فقد وضح لى أن شافعى (بك) ليس فقط مهندسا ولكنه من علماء الآثار والتواريخ ، وقد دعمته مقاصد عملية فى مشروعاته الحديثة أن يقوم بنفسه بدرس كيفية خروج بنى إسرائيل من مصر the Exodus. لأن من مشروعاته الكبيرة رى منطقة إيثام Etham ، وهو الجزء الذى يدخل فى مقدمة طريق بنى إسرائيل ويقع بين وادى النيل و بين شبه جزيرة سيناء ، وخطته تقتضى إعادة « نهر الشمس » the River of the Sun — وهو أحد فروع نهر النيل فى العصور القديمة وقد اختفى وحلت محله الآن ترعة الرى الحديثة ، التى تخرج من النيل قريبا من القاهرة وتمتد شرقا إلى حوض قناة السويس غربى بور سعيد [1] .

---

(١) هى الترعة الاسماعيلية (المعرب) .

ولما كان شافعى (بك) مهندسا للرى فطبيعى أن يلفت نظره و يذكى خياله أمر خارق مثل اجتياز بنى اسرائيل ، و يميل شافعى (بك) هو وكثير غيره من الثقات العصريين إلى القول بأن البحر الذى اجتازه موسى (عليه السلام) هو « بحر القلزم » وليس « البحر الأحمر » Reed Sea (not) Red Sea وأن المسألة فيها خطأ وقع فى ترجمة التوراة [1] حيث ترجمت كلمتا « يمّ سُوفَ » [2] "Yam Souf" بالبحر الأحمر وصوابها « بحر الحشائش » [3] والراجح أن هـذا البحر كان يقع فى منطقة قناة السويس الحالية فى شمالى البحيرات المرة وقد شهد هو بنفسه (يعنى شافعى بك) سدود الحشائش فى هذه المنطقة وأطلعنى على صور شمسية لها . وهو يقول إنه إذا هبت ريح جافة قوية فإنها تعمل عمل العزاقة أو (الفرجون الخشن الذى تنظف به الأرصفة) بأن تجعل الماء ينحسر والحشائش تتيبس .

وقيض الله مثل هذه الريح فأمكنت بنى إسرائيل من العبور سعيا على أقدامهم

---

(١) بديهى أنه يعنى الكلمتين فى اللغة الانجليزية وليس لهذا التجانس مقابل فى العربية .

(٢) هكذا كتبت فى « سفر الخروج ١٣/٣ » .

(٣) هذا فى نظرية شافعى (بك) . ولكن التوراة صريح ينفى هذا التأويل فى أكثر من موضع فى سفر الخروج مانصه : « فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذى دخل وراءهم فى البحر . لم يبق منهم ولاواحد ، وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة فى وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم » . (سفر الخروج ١٤ — ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩) .

وقد صدق القرآن الكريم هذا الخبر فى أكثر من موضع فمن ذلك قوله تعالى « ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى ، فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ماغشيهم » (السورة ٢٠ — طه — ٧٧،٧٨) أى غمرهم وظاهر أنه لم يكن ثمت داع إلى افتراض الخطأ فى الترجمة بل الأولى الجمع بين صريح الكتب المنزلة وبين نظرية شافعى بك (عن تحديد نقطة العبور ووصف طبيعتها) بأنها منطقة احتوت على مياه وحشائش وهذا ينطبق على منطقة البحيرات المنبسطة والمطيرة أحيانا — وليس على ساحل خليج السويس الذى هو من البحر الأحمر الصخرى الساحل . وهذا الجمع لا يمس الأخبار الصادقة الواردة فى الكتب المنزلة ولا يقلل من قوة المعجزة التى نصر الله بها عباده المستضعفين على عدوهم المتجبر والله أعلم . (المعرب)

ثم سكنت فامتد الماء بعد انحساره وهذا كاف لغرقة مركبات فرعون وإن كان لا يجرف فرعون وجيوشه [1].

ويرى الشافعى (بك) مستندا على ما جاء فى التوراة أن شبه جزيرة سينا لم تكن قفرا موحشا لا خير فيه ، بل كانت وما زالت على الدوام متمتعة برى حسن نسبيا . وهو يقدر أنه يوجد بها فى المتوسط عين ماء فى كل خمسة عشر ميلا أى ما يساوى مرحلة من سير الجمل فى سحابة يوم واحد .

حتى لو افترضنا أن أخبار خروج بنى اسرائيل فيها شك أو مبالغة فمجرد أن جماعة كبيرة كهاجرى بنى اسرائيل استطاعت أن تدبر معيشتها فى شبه الجزيرة مدة ٤٠ سنة فهذا معناه أنها كانت على الأقل فى عصر التوراة قادرة على أن تزود مثل هذه الجماعة الكبيرة بالطعام والشراب ، وليس بصحيح أن نقصر هذه المقادير الكبيرة على طعام « المن » Manna أو على المياه النافرة من صخرة حوريب Rock of Horeb والمسئولون المعاصرون لا يقبلون تقدير المهاجرين بعدد ٦٠٠,٠٠٠ رجل (كما ورد فى سفر العدد إصحاحى ١ ، ٢٦) لأن مؤدى هذا أن مجموع الجالية كلها كان لا يقل عن المليونين أو الثلاثة الملايين بما فيهم النساء والأطفال وهذا بحسب المعايير العسكرية كلها مستحيل . ويرى بعض الدارسين الحديثين أنه ربما يكون قد عمل فيما بعد فى عصر داود إحصاء لبنى إسرائيل فاختلطت أعداد نتائجه بإعداد سفر الخروج كما رواها اليونان ، وإن الرقم الأكثر قبولا وتصديقا لدى العقل هو ٦٠٠ عائلة (لا ٦٠٠ رجل) [2] مما يجعل جميع الأفراد التى كان موسى (عليه السلام)

---

(١) هذا التأويل ليس صحيحا ويخالف صريح الكتب المنزلة كما أشرنا إليه آنفا فى التوراة والقرآن ، وإن كانت « لريح » لعبت دورها (الخروج ٢١، ٢٢، ٢٣) فإن لله جنودا منها الريح وقد نصر الله نبينا محمدا (عليه الصلاة والسلام) بالريح فى غزوة الخندق (وكفى الله المؤمنين القتال) والله أعلم.
(المعرب)

(٢) هذا رأى المؤلف الخاص مع أن العدد ورد فى سفر الخروج وفى مواضع أخرى فى تحديد وتفصيل .
(المعرب)

مسئولا عن تغذيتها بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ نسمة . وأرض جوشن Goshen التى أقام فيها بنو اسرائيل فى أرض الفراعنة قبل خروجهم منها تقع بين أقصى فروع النيل شرقا و بين القناة المعروفة الآن باسم قناة السويس ، والمحققون المصريون يرون أن فرعون موسى هو رمسيس الثانى (١٣٠١ — ١٢٣٤ق م) الذى كان شغوفا بالمبانى ولكى ينشىء مدينتين لتخزين الحاجيات ، جند رجال جوشن والمدينتان وهما رمسيس وفيتوم [١] عرفتا مرة بأنهما مدينة معينة ذكروا اسمها فى شرق الدلتا وأخرى ببلدة مقاربة لبلدة سُكوت Succoth القريبة من بحيرة التمساح التى هى الآن جزء من مجرى قناة السويس . ومقتضى هذه الرواية الحديثة يكون موسى (عليه السلام) جمع قبائل بنى اسرائيل وقادهم مارا « بسُكوت » فى جنوبى بحيرة التمساح ثم اخترق « بحر الغاب » إلى سيناء (through the Reed Sea te Sinai) . وقد استطاع موسى بهذه الخطة التهربية أن يتحامى الطريق المستقيم المعتاد بين مصر وفلسطين التى بث فيها فرعون العيون لمراقبتهم .

والسؤال الذى تحير له جندى مصرى كان يناقش هذه المسألة معى هو « كيف كانت الطريق الجنوبية التى اختارها موسى وقومه أسلم من الطريق المعتادة مع أن الطريق الجنوبية مؤدية إلى مناجم النحاس والزمرد فى سينا فكانت هى أيضا على الدوام فى حراسة جنود فرعون محافظة على عيون المياه الواقعة فيها ؟ » .

ولم يكن من أغراض رحلتى أن أتورط فى جدل حول مسائل تتعلق بالكتاب المقدس ، ولكن للموضوع أهمية فى نظرى من حيث أستطيع أن أفهم منه أساسا للمقارنة بين الأحوال العامة فى برية سينا منذ ٣٠٠٠ سنة و بينها الآن .

ولكى أبلغ قصدى هذا استأجرت سيارة يقودها يانكو و بيريكلس Yanco, Pericles وعزمت على تتبع الطريق الذى سار فيه موسى (عليه السلام) وقومه إلى داخل البرية بارشادهما .

---

(١) هكذا كتبتا فى سفر الخروج ص ١٣ (المعرب)

أما يانكو فهو شاب يونانى خدم مع سرب الطائرات اليونانى المشترك مع السلاح الجوى الملكى فى الحرب العالمية الأخيرة وهو الآن يشتغل على سيارة أجرة رقم ١٣٠ (سويس) ، وبربكليس هو يونانى آخر اعتاد سوق العربات فى سيناء نحو ٢٥ سنة وانتهى به المطاف إلى أن أصبح سواقا ومساعداً احتياطياً .

وكان من الضرورى الذى لاغنى عنه أخذ عربتين ، خشية أن تتوقف العربة الواحدة فى برية سيناء حيث لا يمكن إصلاحها حتى فى أسابيع عديدة ، وقد اتفق لنا أننا أمضينا فترة من الزمن نبحث عن جماعة سبقتنا فى طريق رحلتنا منذ عشرة أيام ولكنها اختفت ولم يعلم أحد عنها شيئاً بعد ، لذلك نقلنا فى العربة الثانية قطع غيار تساوى فى مجموعها عربة مفككة . فضلا عن مؤونتنا من الزاد والبنزين وماء الشرب

وكانت النصيحة المهمة التى أعطيت لنا هى « الزموا السير دائماً » ولا تتوقفوا أبدا ، لأن المسافر فى الصحراء لا يمكنه أن يجزم كل الجزم هل قافلة الجمال المقبلة فى الأفق ، أو الهابطة من المرتفع إلى المعابر مسالمة أم معادية ؟ وكانت العادة المتبعة فى عهد السفر على الابل هى ضرورة أن يضع المسافر نفسه فى حماية القبيلة التى يمر فى نطاقها ثم ينتقل إلى حماية القبيلة التالية لها وهكذا إلى نهاية رحلته ، ذلك لأن شيخ القبيلة وأتباعه يكونون بمقتضى عهد الحماية أو (عهد الجوار عند العرب قديما) مسئولين بالتضامن عن أى قتل أو اعتداء يقع منهم أو من غيرهم على من أعطوه « عهد الجوار » [1] هذا .

وهذا هو التدبير الحكيم الذى قررته الحكومة المصرية لصيانة الأمن فى الأقاليم المتطرفة نحو الحدود والتى ما زالت لا تحكم إلا بشريعة «السن بالسن والعين بالعين» أى شريعة القصاص . والقتل العمد بين أفراد القبيلة الواحدة أو بين أفراد من قبائل مختلفة ليس فى عرفهم جرما فظيعا وكفى بل لا بد أن يؤدى إلى سلسلة حوادث دموية يراد فيها أن تأخذ قبيلة المجنى عليه الثار من قبيلة الجانى أو المتهم ، وهذا الثار

---

(١) هذا العهد يدخل ضمن أحكام «القسامة» فى الشريعة الاسلامية الغراء . (المعرب)

بدوره يبدأ سلسلة انتقامية أخرى وهكذا لا تكاد ينتهى السلسلة حتى تتبعها سلسلة . ولكيلا تؤدى بهم هذه القواعد العرفية القديمة إلى التناحر الذى يبيدهم جميعا ، بثت الحكومة فى القبائل فكرة اللجوء إلى التحكيم ، الذى بمقتضاه يستبدل بالثار دفع دية المجنى عليه تلتزم بها بالتضامن جميع أفراد قبيلة المعتدى . ومما يتصل بهذه القواعد أنه إذا كان المجنى عليه غريباً عن سكان الصحراء فان الحكومة تتولى المطالبة بدمه بالزام القبيلة المعتدية عليه بالدية عنه (وقد كان فى هذه المعلومات طمأنة لى بعض الشىء)

وقد دلت التجربة على أن هذه العقوبة الجماعية (أى على القبيلة كلها) نجحت كل النجاح ، ولكنها ليست الشريعة التى يستطيع الغريب أن يخاطب بها البدوى « المتحفز ليطلق بندقيته » على الدوام وفى بقعة تبعد نحو ١٠٠ ميل عن العمران من جميع الجهات الأربع

لذلك كانت أسلم الطرق للوقاية أن يبقى المسافر سيارته « متحركة على الدوام » وأن يبقى على الدوام خارج مرمى أية عصابة من العصابات المقبلة نحوه .

فاذا توقفت هذه السيارة أو تلك بسبب غوصها فى الرمل وقد حصل هذا مراراً كنا نجرى بحركة جنونية ملتفين حول حجر ثقيل أو نابشين الرمال كما تفعل الكلاب فى بحثها عن قطعة من العظم ، نفعل ذلك لنتمكن من قبضة قوية فى العجلة الغائصة فى الرمال ونتعاون على رفعها قبل أن تقع فريسة للأعداء ، ولم يحنا الحظ فى المرحلة كلها إلا مرة واحدة حين لحقت بنا العصابة وأدركتنا ولكننا تخلصنا منها برفق وسرعة بإظهار البشاشة لأفرادها وتقديم السجاير لهم . ولا أكاد أتصور شيئا مملا ومضنياً مثل رحلة خروجنا من مصر إلى سيناء ، فقد غادرنا الفندق فى السويس بعد ليلة قضيناها مسهدين بسبب هرج الجنود الاسكتلنديين وغنائهم المستمر هاتفين لمدينتهم الكبرى جلاسجو « نحن أبناؤك ياجلاسجو » و بعد أن تناولنا فطورنا من لحم الخنزير والبيض

ركبنا السيارة إلى مرسى قارب القناة فكان حظنا أن وجدنا القارب معطلا . وبنا يتكو وبريكليس مصممان — فى صخب وضجر — أن يمدا يد المساعدة إلى عمال القارب فى تركيب ذراع جديد للقارب محل المكسور كنت أنا ولا حيلة لى إلا الجلوس لمشاهدة السفن المارة قريباً منى . وقد كان منظرها وهى تشق طريقها فى القناة المحفوف بالرمال من ضفتيه على مسافة بعيدة وتحت مستوى النظر يخيل إلى أنها محراث يشق سهل الرمال المنبطح فى الفضاء كأنه لا شىء فى الفضاء غيره ! لكن حتى مع هذا الخيال البعيد ، صار المنظر بعد ثلاث ساعات مملا ومسئما كل السأم .

وأخيراً تحرك القارب فى القناة بين هتاف المبتهجين ونشاط المهرولين لركوبه وما هى إلا ثلاث دقائق فقط حتى وجدنا أنفسنا فى سيناء .

كانت الطريق عبر السهل المنبسط جيدة جدا على عكس ما كنا نتخوفه تماما ، حتى خيل الينا أنه لم يكن من المستحسن أن نندفع بالسيارات بسرعة ٥٠ ميلا فى الساعة فى الطريق الذى سلكه موسى (عليه السلام) فى خروجه من مصر ، وكانت أول وقفة لنا عند نقطة عسكرية طلب إلينا عندها تقديم تصاريح السفر وأن نجيب على بعض الأسئلة التى لم تكن مجرد شكليات بل كان يراد منها التثبت من خط سيرنا فان الحالة قد تدعو لاقتفاء آثارنا والبحث عنا ، وبعد أن جاوزنا هذه النقطة بضعة أميال تجاه الجنوب وصلنا إلى بئر موسى ، وهى واحة كبيرة تحوى عدداً كبيراً من نخيل البلح وبركا تلمع فيها المياه ، كأنها حمام سباحة ينادينا للتمتع به ، وأنها لتبدو لنا فى هذه الأيام من خلال عربات البترول اللامعة المصنوعة من معدن الألومونيم على البر الثانى من خليج السويس وعلى مقربة من السفن المصطفة خلف بعضها البعض استعدادا لدخول القناة . وأنها البقعة الخضراء الوحيدة التى يراها فى سيناء السائح الصاعد فى الخليج ، وإنها لتضاعف من شعوره بالوحشة فيما بقى من البرية الرملية ولا تمتد جنوباً أكثر من ٢٠ ميلا تنتهى بعدها إلى تلك الهضبة المرتفعة مع الانحدار الشديد والتى يعلو سطحها الحصباء والرمال الغليظة التى تمتد نحو ١٠٠ ميل الى حدود فلسطين شرقا ونحو ١٥٠ ميلا ناحية الجنوب ، ثم لم نلبث أن تحولنا من

الطريق المرصوف إلى الطريق المفروش بالزيوت ، وهو طريق سوته الهراسات ثم فرش بالزيت بدلا من الأسفلت .

وهذه الطريقة لفرش الطرق يسيرة وإن تكن ملطخة ومتوحلة لأن فى الأراضى المقدسة فى هذه الأيام تعديات عصرية كثيرة ، وهى أن الروافع أو الونشات (الشبيهة بالمشانق) غزت أرض « التوراة » Testament . وجميع استعلاماتنا عن مدى النجاح الذى بلغته عمليات التنقيب عن الزيت كانت تقابل عادة بفتور لا يشجع السائل أن يتمادى فيها ومع ذلك فإنا لم نكن معصوبى الأعين فلم يفتنا أن نلحظ نشاط مخيماتهم ولا وجود الخبراء الأمريكيين بينهم .

« ثم ارتحل موسى بإسرائيل من بحرسوف وخرجوا إلى برية شور ، فساروا ثلاثة أيام فى البرية ولم يجدوا ماء فجاءوا إلى مارة Marah ولم يقدروا أن يشربوا من ماء مارة لأنه مر لذلك دعى إسمها « مارة » فتذمر الشعب على موسى قائلين ماذا نشرب ؟ فصرخ إلى الرب ، فأراه الرب شجرة فطرحها فى الماء فصار الماء عذبا »[1] (سفر الخروج ١٥) .

وإذا كانت « مارة » هذه كما يرى البعض هى « عين هوارة » Hawarah أستطيع أن أشهد بأن ماءها ما زال عذبا .

وبعد أن قطعنا مرحلة أخرى تجاه الجنوب وصلنا إلى نقطة « أبو زنيمة » العسكرية فكان علينا أن نجيب على الأسئلة التى توجه إلينا ليؤذن لنا بمواصلة السير وهنا كنا نتأهب للابتعاد عن الساحل واعتلاء الهضبة ، وأبو زنيمة هذه مركز صناعى مهم لأنها مكان صهر المنجنيز وهى الميناء لحقل مناجمه ، وعلى مقربة من « أبو زنيمة » واحة « غرندال » Gharandel التى يحقق بعض علماء الآثار أنها بذاتها « إيليم Elim » التى كان يوجد فيها « إثنتا عشرة عين ماء وسبعون نخلة »

---

(١) عن نسخة التوراة العربية . (المعرب)

(الخروج ١٥) ، وإنى وإن كنت لم أحص عدد النخيل ولكن الوضع الحالى يطابق الوضع الموصوف فى التوراة .

ومن ثم يتساءل الإنسان مادمنا اعتبرنا هذه الطريق الجنوبية هى التى سلكها بنو إسرائيل فأين تقع « برية الخطيئة » Wildernesof Sin والجواب على ذلك يتوقف على تحقيق موقع « دفخة Dophah » ولما كانت « دفخة » فى اللغة العبرية معناها « صهر المعادن » فمن المحتمل أن إسمها يشير إلى استخراج النحاس من الجبال التى كنا نتأهب لاعتلائها . ويعزز هذا الرأى وجود « يثرون » [١] — المدينى Gethro، وهو حموموسى (عليه السلام) ، وكان قوم مدين حينئذ تابعين لما يسمى الآن « الحجاز » فى شبه جزيرة العرب على الساحل الشرقى من خليج العقبة الذى هو الحد الشرقى لشبه جزيرة سيناء ، لكن يلاحظ أنه كانت ثمت قبيلة تنتمى لمدين متوطنة فى سيناء ، وهم الذين يقال لهم القينيون [٢] — the Kenites ومعناها المعدنون والراجح أن هذه القبيلة هى قبيلة شعيب .

أما « الطريق » التى كان علينا أن نسلكها فكانت تمتد إزاء قيعان الغدران أو الوديان الجافة الصاعدة إلى الجبال والواقع أنها ليست إلا آثار المسافرين قبلنا لأن الفكرة السائدة هى أنه كما مر من سبقونا سوف نمر نحن ، ولكن لم تكن هذه الفكرة سليمة على الدوام فإن الرياح تسقى الرمال على الآثار وتغير من اتجاهاتها وهنا تكون الطامة الكبرى ، حدثت لا فى مرات قليلة تعد على الأصابع بل فى عشرات المرات ، فكثيراً ما انتهى الأثر بالسائرين على هداه إلى مأزق حرج لا يسعهم الخلاص منه وهنا تظهر مزية العربة الثانية فإنها تتقدم لإنقاذ الموقف . وكانت هذه البقعة من الهضبة هى الجزء الجرانيتى منها ، ولا ريب أنه أحد حقول طبقات الأرض البديعة فى الدنيا كلها إذ يرى المسافر فيه الطبقات الصخرية انتظمت فوق بعضها البعض انتظاماً

---

(١) أثبت التحقيق أن يثرون هو « شعيب » عليه السلام (أنظر تفسير معانى القرآن بالانجليزية ترجمة ما رداوك بينهول ، آية ٨٥ سورة الأعراف — هامش) المعرب .

(٢) نسبة إلى « القين » وهو كل عامل بالمعادن عامة ويصهر الحديد والنحاس خاصة وجمعه « الأقيان » وتتفق الكلمة بهم هذه الكلمة العربية لأنهما من أصل سامى واحد (المعرب) .

ظاهراً وتجرد سطحها من أى كائن نباتى ثم أحالته عوامل الدهر إلى طبقات صخرية كل منها تنتظر التى تجىء فوقها طبقة فوق طبقة . ترى العروق فيها تشعبت من كل لون فهى تتدرج فيما بين حالك السواد كالقار ، وشديد البياض كالثلج ، ثم هذا أحمر نحامى ، وذاك أخضر كورق التوت ، وآخر بين الأزرق والرمادى والبنفسجى والبرتقالى ، فهى معرض لجميع الألوان التى يقتنيها الرسام أو لمجموعة ألوان قوس قزح بهذا الوصف مررنا على سلسلة من الجبال العديدة أطلقت عليها أنا إسم « جبال قوس قزح » ولم يكن هذا بسبب مجموعة ألوانها فقط بل لأنها فى بعض منعطفاتها الواسعة أشبهت القوس الواسع فكأنها « قوس قزح متحجر » !

وعندئذ حاذينا حقول المعادن وأمكننا زيارة «الدفخة» وستكون مرحلتنا التالية فى « برية سيناء » Wilderness of Sinai ويطلق عليها أيضاً « برية التوبة » Wilderness of Penance ، وهى متسع شاسع خلا من أى شىء يلطف من إحساس الإنسان المضطرب أو يهدىء من شعوره المرهف حتى أن يانكو Janco ذلك الثابت الجنان والذى لا يتأثر عمد إلى جهاز الراديو وأداره ليتسلى به و بفضل حركته هذه اجتزنا برية الخطيئة تحت أنغام غانيـة باريس Mademoiselle de Paris ، و بعض الأغانى الأمريكية هذا والصقور تحوم فوق رءوسنا .

وأدهى من ذلك أن آثار الأقدام أخذت تتلاشى فما كان من بريكليس إلا أن يتفاهم مع شبا كها الرملية ومع الوهاد الصخرية كما يتفاهم ربان الطائرة مع المطبـات الجوية ، وهذه ليست على الدوام مفاوضات ناجحة . فقد حدث أكثر من مرة أن اضطررنا إلى النزول من العربة لمساعدة السائق فى إنزالها من مجموعة من الدرج — مثل درج السلالم — ولـكنها من نحت الطبيعة نفسها ، وذات مرة وقفنا فى مأزق لم يكن يتراءى لنا عند إقبالنا نحوه على حقيقته — إذ اتضح أنه رمل وهو ملقى عليه هيكل جمل جردته الطيور الجارحة من رمته و بعثرتها على مسافة بضعة أقدام منه ، فكأنها النذير يشهده المسافر بعينيه ليعلم ما قد يكون مصيره فى الصحراء !

واحته فى طريق الزوال : آجام النخيل المرتفعة كأنها سوارى الأعلام تختفي تدريجا تحت الكثبـان الزاحفة عليها

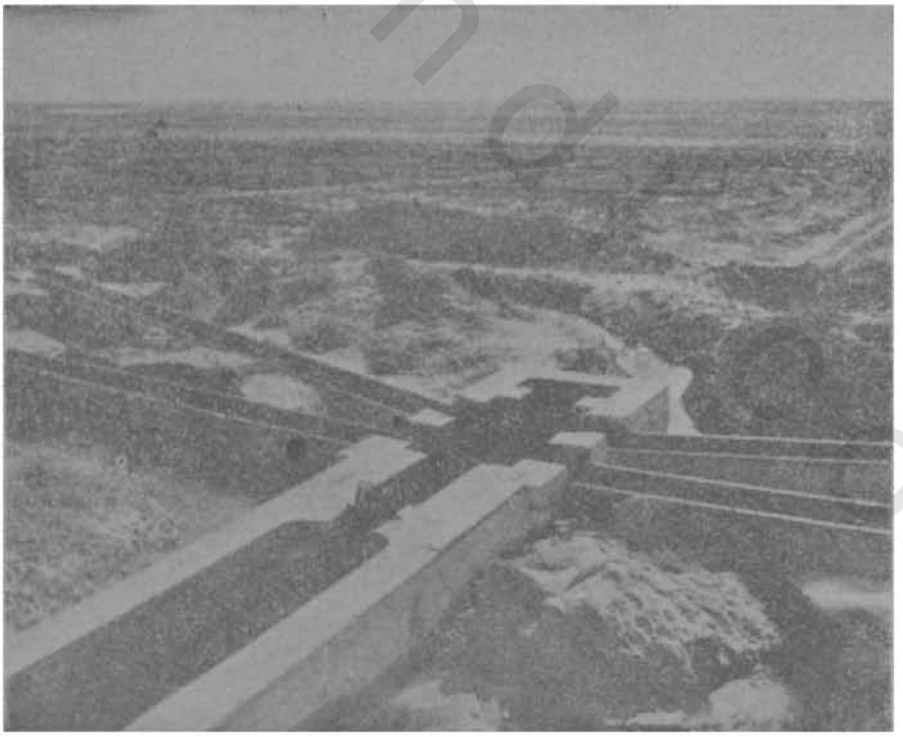

ميلاد واحة : نقلت إليها المياه العذبة فى قنوات من الأسمنت المسلح من آبار ارتوازية دقها الانسان . وقد كانت من قبل تربة خصبة لـكنها محرومة من المياه

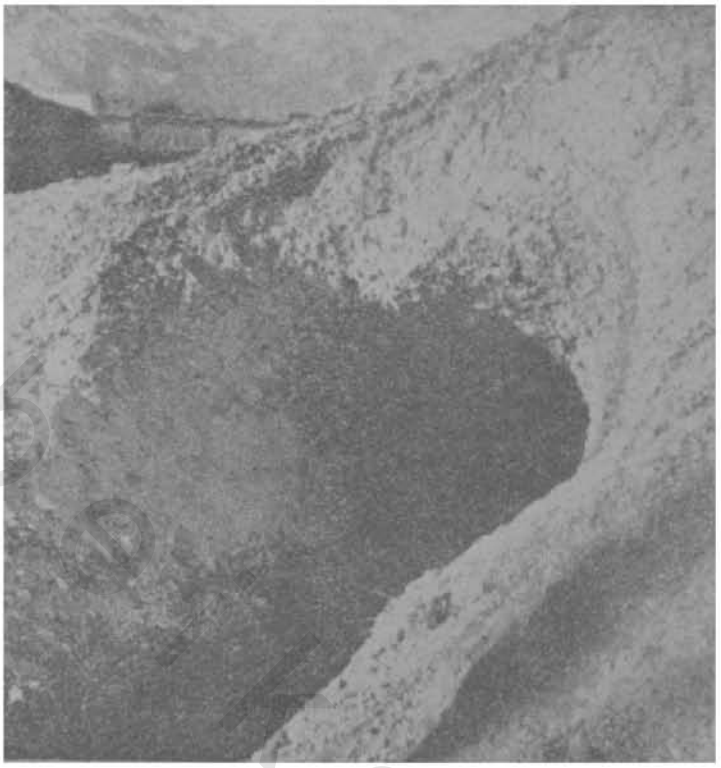

قناة فارسية ترجع إلى ٣٠٠٠ سنة ق . م . وهى بئر تحرى أفقيا تحت سطح الأرض حفرها الانسان من قديم الزمان وبعضها يرجع إلى ٥٠٠٠ سنة ق . م ، وقد تمتد الواحدة منها ٢٠ ميلا .

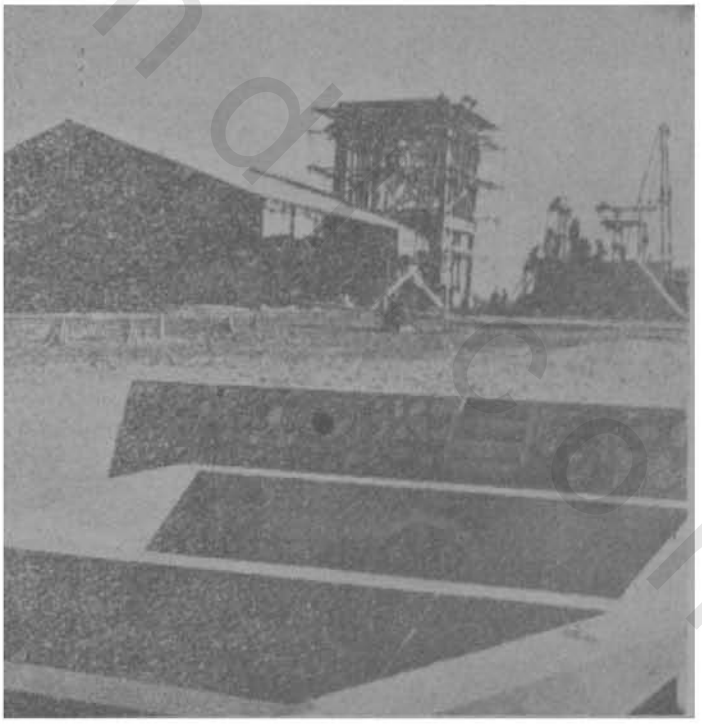

بئر حديثة فوقها مضخة رافعة فى صحراء الجزائر ، تسحب المياه من أعماق سحيقة في جوف الأرض

وعندما أوشكنا نتحول إلى المسالك الجبلية الضيقة ، أخذت المناظر تتغير من وحشة برية الخطيئة التى طالت وثبتت على وتيرة واحدة إلى مشتبك من هندسة العمارة الطبيعية العجيبة فهذه تشكيلات ممتدة من الحجر الجيرى وتلك رمال انصهرت وتبلورت فى حجوم وأشكال بديعة الألوان ، فمن الأهرام صبتها ونحتتها الطبيعة إلى القباب والمآذن إلى المعابد والكنائس إلى القلاع والأبراج المعلقة كالسرادقات أو السجف تعلو الرءوس .

وقد وقفنا فى وادى « المكتّب » لنفحص الكتابات والنقوش السيناوية[1] فشهدنا كثيراً منها على كتل من الجرانيت ، حيرت المؤرخين قرونا عديدة ولم يجدوا حلا لألغازها . وقد احتوت الرسوم خطوطا كروكية للخيل والإبل وأبى قردان وكتابات تحدث الخبراء فى الأجيال المتعاقبة دون أن يفقهوا لها معنى ولكنهم اليوم يعتقدون أنها كتابة نبطية نقشها رعاة الإبل النبطيون .

والنبط قوم من الجنس السامى عاشوا قبل الميلاد بنحو ٥٠٠ سنة وكانت عاصمتهم تلك المدينة العجيبة « بطرة » Petro[2] فى الجانب الشرقى من وادى العرابة فى النقب Negev كانت البيوت فى هذه المدينة والمعابد والقبور تنحت فى تلال الحجر الجيرى اللين متعدد الألوان ، كما كانوا يحفرون درج السلالم ترتقى التلال صعدا منسقة فى طرحات أو مجموعات معطفة دواليك يمينا ويسارا حتى تصل إلى قمة التل ، وما زالت بقايا تلك الصور على الجدران الداخلية عليها مسحة من الجمال . مما يشهد لهم بأنهم كانوا شعبا أحرز قسطا عاليا من الحضارة ، وقد أحاطوا مدينتهم بسياج من الزراعة دفعوا به إلى داخل الصحراء حيث المطر شحيح يعجز أى قوم خلافهم أن يفيدوا منه مثلما أفادوا هم . وإن طرقهم فى عمل الخزانات والصهاريج الأرضية ، وسدود الوديان أو الغدران وقنوات المياه كل هذه المنشآت مافتئت مُثلا صالحة للمهندسين فى زماننا ، وكانت قطعان غنمهم وماشيتهم تمتد إلى مسافات بعيدة فى داخل شبه جزيرة

---

(١) نسبة إلى « سيناء » (المعرب)

(٢) هكذا كتبتها خرائط مصلحة المساحة المصرية (المعرب)

سيناء ، وبلغت أحياناً جبالها الجنوبية وها هى ذى الرسوم والنقوش على الصخور التى شهدناها فى وادى المكتب دليل ناطق بأنهم لم يكونوا أمة أميه لا تقرأ ولا تكتب ، وكانت لغتهم فى أسسها آرامية وهذه هى لغة الكلدانيين والآشوريين فى ميترو بوتيميا (أرض الجزيرة بين النهرين) .

ولكن النقوش التى شهدناها هنا خليط بين الآرامية والكوفية (وهذه الأخيرة لغة مدينة بابل) واليونانية . ولعل هذا الخلط هو السبب فى حيرة خبراء الكتابات القديمة ، ومع ذلك فحل هذه الألغاز بالقواعد الحديثة يتلمس العذر لأولئكم الخبراء الحائرين الذين لعلهم وقفوا هذا الموقف بسبب قصر محاولتهم على كشف أصول الشرائع . ومهما يكن من أمر فإن هذه النقوش أشبه شىء بالذكريات التى يدونها الرحالة على جذوع الأشجار أو جدران الآثار التى يزورها حين يخدش بأظافره اسمه هكذا :

« اذكروا زايلو بن وايلا » أو « أنا ليبوس الجندى كتبت هذا بخط يدى » أو كما يقول لك . س . جارفس C. S. Jarvis فى كتابه : « سيناء فى حاضرها وماضيها » « Yesterday and to day in Saini » « نقوشهم تلك شبيهة بشخص فى عصرنا الحاضر ينقش على عجل كوروناش ، « أقصوصة للدربى » Coronachea snip for the Darluy، أو ما هو أشد سذاجة وسخفا من هذا . على أمل أن يأتى المؤرخون بعد ٢٠٠٠ سنة ويحاولوا حل هذا السخف .

ثم وصلنا قرب الغروب وادى فيران Feiran هذا الوادى الذى يزعم البعض أنه رفيديم Rephidim التى قاتل فيها بنو اسرائيل العمالقة [1] . « وفيران » هذه واحة فيحاء وما زالت تحيط بها الجبال الملئى بالحفر التى كانت فى حين من الدهر مأوى لنحو ستة آلاف راهب ، ولكنها اليوم لا يسكنها إلا راهب واحد يونانى ذو لحية

---

(١) سفر الخروج ١٧/٢ ، ١٠ (المعرب)

فى شكل القدوم لـكنه قابلنا بترحاب كثير تحية منه ليانكو صديق صباه قبل أن ينقطع هو للرهبنة . ولأننا أتحفناه بمقدار من السجاير لم يحصل على مثله منذ عدة أسابيع .

و بالرغم من توديعنا له بالمعانقة والملاطفة فى الكلام وتطييب خاطره بكل وسيلة شدد علينا الرجاء فى عدم المجازفة بمواصلة السير خشية أن يجن علينا الليل ونحن فى أحضان الجبال ، لـكننا كنا جد شغوفين بأن نصل إلى دير جبل سيناء فى ذلك المساء وقدرنا أنه ما زال باقياً على مغرب الشمس ساعتان .

وكنا فى تقديرنا هذا خاطئين ! حقاً إن ساعاتنا أخبرتنا بهذا التقدير ولـكن الأمر له وضع آخر فى أحضان الجبال ، حيث تغرب الشمس قبل غروبها فى مستوى البحر بفترة كبيرة . لأن الجبال العالية تقف شامخة كأنها مصاريع النوافذ أو الأبواب المقفلة فتلقى ظلالها على ما فى داخل الأماكن المقفلة . وقد وقعنا فى هذه الورطة بعد نصف ساعة فقط من مغادرتنا الراهب . فـكنا فى صعودنا وتسلقنا الجبال كمن يحاول أن يتسلق مدخنة باردة كأنها الثلج .

والأدهى من ذلك أننا كنا نتحسس طريقنا فى الظلام ، وأقل ما يوصف به ذلك الطريق هو أنه غامض والواقع أنه مجهول كل الجهالة أو غير موجود بالمرة . ومما زادنا حرجا على حرج أن أنوار العربة كانت تخادعنا فـكانت ترينا الحصى المنزلق والصخور الملساء كأنها صالحة وسليمة .

و بعد أن ذقنا الموت آلاف المرات بلغنا سطح المرتفعات ومن ثم استطعنا بارشاد الهلال المطل علينا من خلف القمـة أن نلمح على مسافة منا وادى الشيخ Wadhi ElSheich ، وهو سهل متسع يرى البعض أنه هو المـكان الذى عبد فيه بنو اسرائيل العجل ، إذا نحن الآن فى جبل الوصايا العشر ، وهو البقعة المقدسة فى نظر الأديان الثلاثة اليهودية ، والمسيحية ، والاسلام ، يشمخ من فوقه جبل موسى

ويقع فى بقعة من سهل قاعدته ذلك الدير الذى هو وجهتنا ، ومع ذلك فإن النزول منه كان أشد تحطيما لأعصابنا من تسلقه .

وما نشعر إلا والسيارة رقم ١٣٠ سويس ، اندفعت دفعة المستميت فى خلال الظلال ثم وقفت دفعة واحدة ولم تسكن وقفتها فى هذه المرة كالوقفات السابقة لاعتراض صخرة أو نتوء فى الطريق بل كانت تحت أسوار قلعة جبل سيناء .

فما كان من « يانكو » الذى أطفأ جهاز الراديو ولم يعد يستمع إلى « غانية باريس » بل أقبل يصلى بدعوات كثيرة إلىّ أن صاح فجأة صيحة المنتصر والمتنفس لانفراج الضائقة ، وجبل موسى من خلفه ردد الصدى كأنه يعتب عليه هذا الهرج فى تلك البقعة التى صعق فيها بنو اسرائيل أمام غضب الرب . أما بريكليس فضغط على بوق التنبيه مرارا فرددت الجبال جميرها فكأنها « بوق يشوع » « Joshua » عاد ينفخه مرة ثانية كل هذا وأسوار القلعة لم تجب بشيء ، ولم يبدُ منها بصيص لضوء فأمسينا نخشى أن نبيت فى العراء فى ليلة قد ذات رياح ثلجية تهب من قبل « صخرة العجل الذهبى »[1] .

ولم يسعنا إلا أن نتحدى الأصداء التى تزدرينا ولا نبالى بصياحنا بمتابعة الصياح والتنبيه إلى أن أقبل نحونا صف من المصابيح يحملها رجال معممون خرجوا من مجموعة أكواخ بنيت خارج القلعة ، وهؤلاء المتلفحون هم رجال مسلمون من خدم الدير ، من قبيلة عجيبة تسمى « الجَبَلِيّين » ليسوا من أصل عربى ، إنما هم ذرية رقيق مستجلون قديما من والاخيا (رومانيا) فى القرن السادس عشر .

ولم يمنحوا قط أمان الدير ، بل خدموه من الخارج واعتنقوا الإسلام فى القرن السابع عشر ليأمنوا سطو البدو عليهم .

وقد وقفتُ على خبرهم هذا متأخرا أما عند لقائهم فكل ما تصورته فيهم أنهم رجال أعدوا فى ذلك المكان القر الموحش ليغيثوا اللاجئين من أبناء السبيل . وقد

---

(١) الذى عبده بعض قوم موسى . في أثناء غيابه لميقات ربه (المعرب) .

استطاعوا بطريقة ما أن يوقظوا ناظر الأضياف فى الدير الذى أقبل بلحيته الشعثاء وشعر رأسه المتهدل برز من قلنسوته يرحب بنا ببشاشة وحماسة فى هذه الساعة الحرجة لأننا من أبناء السبيل وقد هب من نومه المبكر لأن الرهبان يستيقظون لصلوات الفجر فى الساعة الثالثة صباحاً .

فقادنا إلى الداخل يحمل فى يده مصباحا هوائياً وساعدنا على تخطى الأحجار الثقيلة التى كانت خلف البوابات حتى وصل بنا إلى دهليز ضيق ومخبوء فى جوف جدران أو أسوار قلعة الدير . ويبلغ ارتفاع هذا الدهليز ستة أقدام وعرضه ثلاثة أقدام ويعترضه ثلاثة أبواب ثقيلة مصفحة ومزاليج ضخمة يفصل الواحد عن الآخر مسافة كبيرة . هذا عدا الكُوّى (الشبابيك الصغيرة) المعدة للرماة من الرهبان يصدون من خلالها أي هجوم على الدير .

وقد فتح الباب الخارجى بمفتاح يزيد طوله على القدم ويؤدى هذا الباب إلى ممر ضيق فيه كوّى مثل السابقة ليقذف منها الرماة بالحراب والنبال وقت أن يكون المهاجمون محاولين كسر الباب الثانى الذى يضاهى الأول مناعة وثقلا واستعدادا للدفاع

وينفتح الباب الثانى إلى طرقات مرسومة فى شكل زوايا قوائم تؤدى إلى الباب الثالث . كل هذا الجهاز المركب تركيباً معقداً معد فى جوف الجدار الضخم الذى يحيط بالدير نفسه فى عُقْر القلعة . ويبلغ طول هذا الجدار ٢٨٠ قدما وعرضه ٢٥٠ قدما شيد من كتل ضخمة من الجرانيت مسطح الواحدة منها خمسة أقدام مربعة . وأقيم فى كل ركن من أركان الدير برج مستدير [1] مرتفع ولا سبيل إلى طروق الدير إلا من هذا المسلك الوعر أو بالكرسى المدلى من قمة السور إلى الساحة الخارجية ليلتقط من يصرح له بالدخول فيرفع بحيل (بكرة) كما ترفع الأثقال (بالونش) .

وقد سرنا خلف ناظر الأضياف فى السرداب داخل الجدار وارتقينا متاريس وسلالم من الجرانيت حتى وصلنا إلى داخل « مدينة الدير » . ثم ارتقى بنا الناظر

---

(١) للكشف مثل النظارة (المعرب) .

خمسة طوابق فى الدير وأخيرا انتهى بنا المطاف إلى العلالى التى قضينا فيها ليلتنا وقد سمح لنا بالجلوس فى حجرة استقبال ازدانت جدرانها بصور مطبوعة بالحجر من عمل مدارس يوم الأحد البريطانية أبرزت الفكره فى الخروج Exodus ، و بصور منزوعة من المجلات الملك جورج والملكة اليا صابات والملك بولس ملك اليونان وسمح لنا أيضاً أن نطهى ما حملنا معنا من طعام فى مطبخ خاص ، وألحقوا بخدمتنا أحد الخدم من الجبليين ، وقد كان الموقد على كتلة من الحجر ضخمة وأوقد بحطب الطرفاء (الأثل) وغيره من العشب العطرية حتي لنشم رائحتها الزكية فى طعامنا المسمى اسباجتى Spagbetti كأنه البخور . وحتى لو كانوا جهزوا لنا شايا من ماء الورد ، لطابت نفوسنا له بعد يوم طويل عانينا فيه ما عانينا من ضنك وخوف مما انفتحت له شهيتنا للطعام أيما فتح .

وكان نومى غير مريح ، ولم يكن ذلك بسبب الوجبة التى تناولناها ولا بسبب تقشف الحجرة المرشوشة حديثاً بماء الجير ولا ليبوسة الفراش والمراتب ، ولكنه كان بسبب العواصف التى زمجرت وزأرت وجلجلت بين الجبال . مما دعانى للنهوض ليلا والإشراف من كوى الدفاع فشهدت السحب تتجمع من خلف الصخور الوعرة فى جبل موسى ، وفطنت من هذه المناظر السر فى أن الرب الموصوف فى التوراة وفى هذه البقعة كان رب الغضب حقا! فكل شىء كان يصب الغضب صباً ! الريح والجبال والسحاب . ولم ألبث طويلا حتى دلفت إلى مخدعى ثانياً لأنام لكن سرعان ماقطع على أحلامى وقد عصفت بها الأنواء فى نحو الساعة الثالثة صباحاً طرقات غليظة أحدثها راهب على مدى عشرين قدماً منى يدق قضيباً غليظاً من الخشب بمطرقة خشبية ليوقظ الرهبان ليؤدوا صلواتهم فى الساعة الثالثة صباحا .

ولما انبثقت الضياء ، انجاب معها الظلام ولكن الدير ما زال فى نظرنا موطن العجائب والغرائب . فقد شهدنا إزاء برج ناقوس الكنيسة المسيحية ، مئذنة مسجد فكان بديعاً حقاً رؤية مسجد فى داخل كنيسة !

وأما الكنيسة فهى متحف جمع كل المعالم من عهد الأنبياء إلى عصرنا الحالى فهذه بئر (شعيب) وعندها قدم موسى زوجته صفورة Zipporah وولديه [1] .

وتقع هذه البئر فى فناء متسع ركبت فوقها مضخة حديثة ، وعلى مقربة منها « العشبة المحترقة » [2] وقد أحيطت بكنيسة صغيرة خاصة بها ، وكان من الواجب أن يخلع الداخل فيها نعليه كما يقضى بذلك حكم التوارة . وليس هناك أى أثر ظاهر « للعشبة المحترقة » فى كنيستها ، ولكن الرهبان الذين اقتفوا آثار أسلافهم منذ ١٥٠٠ سنة مازالوا يوقدون الشموع فى البقعة ليل نهار فلم تطفأ قط وهم يؤكدون أن جذور العشبة مازالت تحت « أرض المذبح » . ويوجد خارج الكنيسة عشبة محوطة بسياج يقول الرهبان « أنها نجمت أو أفرخت من العشبة الأصيلة ، وهى نامية ودائمة الخضرة على طول عصا هارون التى أخرجت فروخاً وأزهرت زهراً وأنضجت لوزاً (سفر العدد ١٧/٩) [3] » .

وفى داخل كنيسة القديسة كاترينا St. Catherien توجد الخزانة التى تحوى رفات هذه الشهيدة ، التى حطموها تحت العجلة ، وقطعوا رأسها وقسموا جسمها أرباعا . والتى نقلت رفاتها الملائكة — بقدرة القادر — إلى حيث هى الآن فى جبل كاترينا فى سيناء . ويوجد فى كنيستها خزانتان فضيتان كبيرتان أرسلهما قياصرة الروسيا على دفعتين متباعدتين متوسلين أن ترسل فيهما إلى بلادهم رفات الشهيدة ، ولكن كلما رفعت الرفات من خزانتها الحالية رجعت بقدرة القادر إلى مكانها فى هذه الخزانة وعلى ذلك استقرت نهائيا فى الكنيسة رفات الشهيدة وخزانتا القياصرة .

ويعتبر دير جبل سيناء مجمعا لآثار المسيحية الأولى فيوجد فيه مكتبة منشأة حديثا

---

(١) هى صفورة بنت يثرون (شيلب) وولديها جرشوم واليعازر وكان موسى تركهم الذى جدهم عند توجيه إلى مصر لاخراج بنى إسرائيل سفر الخروج ١٨/١/٢/٣ .

(٢) العليقة التى استرعت نظر موسى فتوجه إليها (سفر الخروج ٣/٣٢٢) فسمع كلام الله تعالى (المعرب)

(٣) هذه هى عبارته نقلا عن نسخة التوراة العربية .

تحوى نحو ٣٠٠٠ من المخطوطات والكثير منها مموه بالذهب و يرجع إلى أقدم العهود وقد درس كثير من الكنوز الثمينة بمر الزمن لتمزق أوراقه كما فقدت بعض نفائسها فقدانا كليا ، فقد كان الدير مضيافا لكل قاصد ومستأمنا لكل وارد ، فكان الزائرون فى حل من ولوج المكتبة بلا قيد ولكنهم لم يكونوا جميعا من ذوى الذمة الطاهره ؛ وقد روى لنا الراهب الأشهب سا كريستان Sacristan أن زائرا ألمانيا إسمه شيندوف Tischendof زار الدير سنة ١٨٤٤م وغادره مختلسا « العهد السيناوى » Codex Sinaicus الذى يرجع إلى سنة ٤٠٠ م وهو ترجمة يونانية للعهد القديم « التوراة » (بما فى ذلك الآبوكريفا — Apocrytho) — كما نقل معه أكمل ترجمة للعهد الجديد (الإنجيل) ، و باعها للقياصرة ، ولكن الحكومة البريطانية استردتها من حكومة السوفييت لقاء مبلغ ١٠٠٠٠٠ جنيه ومن بين النفائس المسيحية وثيقة خطية إسلامية ينزلها الرهبان منزلة الإعتبار الأعظم ، ولهم كل الحق فى ذلك ، لأنها كانت مستند نجاتهم فى نحو ١٥٠٠ سنة ولقد صانت هذه الوثيقة ببركتها الخاصة حياة الرهبان بقدر ما صانتهم القلعة الهائلة نفسها وهى القلعة التى شادها جيستينيان سنة ٥٣٠ م لحصانة النازلين فيها والكنيسة التى شادتها والدة الامبراطور قسطنطين سنة ٤٣٠ م .

وفى الحق أنها قلعة ضخمة حقا ولكنها ليست بالحصن الأمين من الوجهة الحربية لأن الجبال الشاهقة تعلوها فيستطيع الأعداء أن يرشقوها بالقنابل من فوق الجبال ، لهذا السبب يقال أن جوستينيان أعدم المهندسين الذين اختاروا موقعها . ومع ذلك فقد لقى نزلاء هذا الدير بفضل وثيقة كتبت على رق الغزال لولاها لنزل بهم القضاء الذى نزل بالأديرة القريبة منهم مثل دير وادى فيران الذى كان ينزل فيه ٦٠٠٠ راهب فكل هذه الأديرة لم يبق منها إلا أطلال تنعى من بناها . وكلما نشر الرهبان هذه الوثيقة لم يكن ذلك ليتأملوا هل هى حقيقية أم مشكوك فيها بل لينظروا نظرة الواثق المطمئن إلى قيمتها الإسمية ، و يسلموا تسليما بالأصول المنسوبة إليها . وتقول هذه الوثيقة إن

شاباً سائق إبل ضل الطريق فى الجبال فى أوائل القرن السابع عشر فطلب المأوى وأعطيه فى هذا الدير وقد فطن الرهبان ببعض العلامات المميزة فى الشاب ، أنه (محمد رسول الله المنتظر صلى الله عليه وسلم) والذى حان أوان بعثته . وفى مقابل إكرامهم له ، منحهم « وثيقة » بأنه لا يجوز لأتباعه فى المستقبل أن يخرقوا حرمة هذا الدير ولما لم يكن الشاب يعرف الكتابة فترك إبذانا بصدق الوثيقة بصمة يده بالمداد بدلا من إمضاء الوثيقة بالحروف . ولكن الوثيقة التى يعرضونها ليست هى النسخة الأصلية ، لأن النسخة الأصلية صادرها سلطان عثمانى ، و إنهم يصرون على أنها صورة طبق الأصل منها أما كيف استطاعوا أن يعيدوا نقل بصمه النبي بيده الشريفة فهذا أمر لم أفهمه وأترك بحثه لأولى العلم ولبوليس لندن Scoland Yard وهو الأمر الذى لم أجسر على أن أتفوه به أمامهم .

وعلى أى وجه افترضنا الحقيقة فإن هذه الصورة قدأدت الغرض منها أداء كاملا فبقى بفضلها نزلاء دير جبل سيناء فى وئام دائم مع جيرانهم المسلمين — حتى مع رجال البادية أنفسهم [1] .

وترد على الدير كل يوم أسر من قبائل البدو المجاورة للمنطقة بموجب اتفاق قديم ليتسلموا مقررهم اليومى من الخبز الفطير (غير المختمر) الذى يجدونه فى مخابز الدير الشبيهة

---

(١) هذه الرواية مع ما فيها من البشارة ببعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لم ترد فى السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة رضى الله عنهم مع أنهم لم يتركوا شاردة ولا واردة من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم إلا ذكروها وكل ما ورد عن النبي هو أنه فى أكثر من موقف أوصى بنصارى مصر خيرا لأن بيننا وبينهم نسبا وصهرا فلو كان المحادثة المزعومة أساس لأعلنها الرسول (ص) وهو الوفي الصادق الأمين .
وما كان الصحابة ليغفلوا إيراد هذه الوثيقة وفيها نصرة للرسول . وليس فيها أى مساس بكماله صلى الله عليه وسلم . إنما أتذكر أنى قرأت من زمن بعيد شيئا من هذا القبيل منسوبا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو عهده لعمرو بن العاص رضى الله عنهما فاتح مصر وخلاصته أن « أهل الذمة لهم ما لنا وعليهم ما علينا » . (المعرب)

بالكهوف ويدلونه للواردين من كوى الدفاع ، ولا بد أن الرهبان النازلين فى الدير كانوا يوما من الأيام طائفة كبيرة ، و إنهم كذلك الآن ولكنهم لا يقيمون جميعا فى الدير بل المقيمون فيه ١٤ راهبا فقط و يقيم ٤٠ آخرون فى القاهرة مع بطريق سيناء وللطائفة مؤسسات غنية فى قبرص وغيرها .

و بالرغم من موقع الدير فى الوهاد المحاطة بالجبال العالية التى تحجب عنها الشمس من الساعة الواحدة بعد الظهر فإنه متمتع بجميع حاجيات النازلين فيه ، فيجرى فى خلال واديه غدير من الماء العذب ، وليس هذا من الماء المتفجر من صخرة حوريب عندما ضربها موسى (عليه السلام) بعصاه فانبثق منها الماء، مع أن الصخرة التى يسمونها الآن « صخرة موسى » صلد لا ماء فيها، وأجمات شجر الزيتون والكروم والبساتين النامية فى الوادى تسقى من مياه الينابيع المنحدرة من فوق الجبال . والحدائق الملاصقة للدير نفسه محاطة بسياج من شجر السرو والزيتون وتنتج مقـــادير وافرة من البرتقال والخضر .

ويقوم حراس الدير الصغير فى وادى فيران (ويطلق عليهم الجبليون) بزراعة أرضهم لإنتاج القمح ، ومن الغرابة بمكان أن نرى فيما يتغذى به الرهبان المقيمون فى جوف صحراء سيناء المحـار الذي يجلبه لهم الخدم من خليج العقبة على مسافة ٣٦ ساعة ذهابا و إيابا على ظهر الجمل و إذا أراد الراهب أن يبعث بخطاب أو برقيـة فيكون ذلك من بلدة الطور وهى ميناء على خليج السويس و يحمل الرسالة اليها خادم صغير من الجبليين يزودونه بزمزمية من الماء ورغيف واحد من الخبز وحفنة من الزيتون فيتوثب مبتهجاً برحلة يقضى فيها بين الجبال يومين سعياً على القدم ذهاباً و إياباً إلى بلدة الطور ، ولا يبدو منه أى تذمر أو تحفظ فكأنه ذاهب لإلقـاء خطاب بصندوق البريد فى نهاية الشارع الذى يسكن فيه .

ثم تبين أن بين الأربعة عشر راهبا المقيمين فى هذا الدير العظيم رجلا كان رفيقا حدث السن ليانكو وهو أحد رجال السرب اليونانى الذى اشترك مع السلاح الجوى الملكى (البريطانى) فى الحرب العالمية الأخيرة .

ومنطقة جبل سيناء من شبه الجزيرة تسد أود ٢٠,٠٠٠ نسمة من البدو القانعين بالعيش فى ظل الدير يرعون قطعانه من الغنم والماشية ويزرعون كل شبر من الأرض يجدونه صالحاً للزراعة لإنتاج القمح اللازم لخبزهم .

ومن الخطأ الفاحش أن يظن إنسان أن شبه جزيرة سيناء أرض قاحلة عديمة الماء والنبات . وأن القصص نفسها التى جاءت فى التوراة عن بنى اسرائيل وهم الذين عاشوا فترة من الزمن على المن والسلوى تضمنت إشارات إلى ما تكنه «برية سيناء» من ماء ونبات ، عاش عليه هؤلاء القوم بقيادة موسى (عليه السلام) جيلا كاملا من الزمان .

وما زال الإنسان يستطيع أن يعثر على «المن» على ورقات شجر الطرفاء (الأثل) وهو مادة سكرية تترسب على الورق شبيهة بحب الكزبرة بيضاء حلوة مثل الكعك المصنوع بالشهد وهى من نتاج حشرة المن "an aphis" التى تعيش على شجر الطرفاء وتضع عليه هذه المادة البيضاء ليلا فإذا أقبل الصبح سقطت على الأرض ورما تطايرت مع الريح .

وقد أمر بنو اسرائيل أن يجمعوها مبكرين فى الفجر متجمدة مع الندى لأنها إذا تركت حتى تطلع عليها الشمس أذابتها كما ورد فى التوراة . أما السمانى التى كانت تفد فى كل مساء فتملأ مضارب خيامهم فهى ظاهرة عادية باقية الآن وإن سحبا كثيفة من هذا الطير تخور قواها وتسقط فى شمالى الجزيرة فى شهرى سبتمبر وأكتوبر من كل عام بعد عبورها البحر الأبيض المتوسط فى أثناء رحلتها إلى الجنوب وأنها لتترا كمة حتى ليمكن جمعها بالأيدى ولكنها الآن لا ترى فى جنوبى الجزيرة بل ترى فقط فى البطاح الرملية فى الشمال مما حدا ببعض الثقاة — ومنهم ميجر جارفس — الذى كان محافظاً لسيناء أن يفندوا أى استنتاج بأن هجرة بنى اسرائيل كانت من

جنوبى الجزيرة ، ويقولون بأن هـذه السمائى هى من بين الأدلة على أن هجرتهم كانت بمحاذاة الساحل الشمالى ، وانتهى بهم الأمر بتجميع قوتهم واستقرارهم فى « عين الجديرات » Ain Gederat بقرب « القسيمة » Koseeima على مقربة من حدود فلسطين الحالية — وذلك استعدادا منهم لغزو أرض « كنعان » Conaan ولو تمكن على شافعى (بك) وزملاؤه من إتمام مشاريعهم لرى شبه الجزيرة لأمكن بفضل هذه المشاريع أن تنتج ما يكفى لمعيشة قوما أكثر عددا ممن خرجوا مع موسى (عليه السلام) .

الفصل الثامن

أرض ألف ليلة وليلة

بلغنا فى اتجاهنا شرقا عبر سيناء نقطة على مسافة ٦٠ ميلا من المنطقة التى كنت عولت على مشاهدتها فى « النقب » الذى يقع فى داخل برية «صين» «Zin» وليست « برية سين » «Sin» (الخطيئة) التى تختلف عنها اختلافاً كلياً [1] ومع ذلك وجدت نفسى مضطرا لكى أبلغها أن أواصل رحلتى ٢٥٠٠ ميل ، ولم تستطع مهمتى الدولية الرسمية أن تشفع لى وتجيزنى عبور الحدود بين مصر و إسرائيل ، ولو كان جواز سفرى احتوى على تأشيرة من اسرائيل لما أمكن لأية دولة عربية أن تسمح لى بدخول بلادها ولما سمح لى حرس الحدود المصرية أن اجتازها إلى داخل بلادهم ، وترتب على هذا الموقف أنه و إن تكن اسرائيل مثل الدول العربية عضوا فى اليونسكو وهى الهيئة التى أقوم باسمها برحلتى هذه ، فقد اضطررت إلى العودة إلى القاهرة لآخذ مقعدى فى إحدى الطائرات التى طارت بنا شمالا فوق البحر الأبيض المتوسط مبتعدة كل البعد عن ساحل فلسطين حتى صارت محاذية لبيروت إحدى موانى دولة لبنان العضو فى الجامعة العربية ومن ثم اتجهت شرقا إلى دمشق عاصمة سوريا ومنها عبرت الصحراء إلى بغداد عاصمة العراق ومنها حلقنا فوق هضبة إيران وهناك انقلبنا إلى الخلف متجهين غربا إلى قبرص حيث أمكننا أن نأخذ تأشيرة الدخول إلى فلسطين ومنها إلى النقب . حقا إننى كنت معتزما السفر إلى العراق و إيران ولكن المعقول أننى كنت أبدأ باجتياز سيناء إلى النقب ومن ثم اتجه شرقا مجتازا شرق الأردن

---

(١) كتبت فى سفر العدد ص ٢١/١٣ صين بالصاد .

وهذا التجانس اللفظى لامقابل له فى ترجمة الكلمتين فى اللغة العربية (المعرب) .

(أو كما يطلق عليها الآن — المملكة الأردنية الهاشمية) وقد أدت هذه الخطة إلى عدم إمكان دخولى شرق الأردن نهائياً ، ومع أن اسرائيل أغفلت كل القيود الرسمية لكى تسهل لى رحلتى وتعفينى من ازدواج جواز السفر ازدواجاً مسرحياً لا داعى له فإن ضابط الهجرة فى « اللد » Lydd طبع جواز سفرى بدون وعى منه وفى غفلة منى أيضاً حين كنت منصرفاً عنه إلى جهة أخرى ، وترتب على عمله هذا الغاء جواز سفرى وتأشيرة دخولى إلى المملكة الهاشمية .

وأقرب نقطة أدنتنى من مملكة الملك عبد الله هى شرفة فندق الملك داود فى أرشليم — القدس — فهناك أستطيع أن أقف وأتبادل التلويح باليد مع حارس من جنود الكتيبة العربية الأردنية على أسوار القدس القديمة ولم يفصله عنى أكثر من ٥٠ ياردة .

ولم تقم فى سبيل سفرى إلى العراق أية عقبة سياسية لتكدر ما كنت أحلم به من مسرات فى رحلتى إلى تلك البلاد ، إذ كنت معتزما دخول بلاد هارون الرشيد ومسرح ألف ليلة وليلة و بابل التى هى مهد إحدى الحضارات العظيمة ، ولكى أسبح فى الخيال حجزت حجرة فى فندق سنباد على نهر دجلة .

ولكن سرعان ما تبددت أحلامى بمشاهدة مواطن الأبهة وجلال السلطان قد عدا عليها الزمان وحلت محلها بغداد الحديثة وليس فيها أية مسحة من الفخامة ومن مظاهر مجدها الدارس .

ومع ذلك حاولت أن أعلل نفسى بمشاهدة اثارة ضئيلة من ذلك العهد فى السوق أو « البازار » وفى دار الآثار . ففى الحوارى الضيقة استطعت أن أرى ألواناً من الجمال فى حوانيت الصاغة تضيئها مشاعل صهر الذهب والفضة كما شاهدت معارض السجاجيد بأنواعها المختلفة و بألوانها المزدهية التى لا تضارعها معارض أخرى حتى معارض إيران نفسها التى كلما ذكرت ذكر معها السجاد الشرقى الفاخر .

وهذا راجع إلى أن الحجاج القاصدين مكة والهابطين إلى بغداد من كافة أنحاء الجبال الشرقية والشمالية ، فمن بلاد الكرد ومن تبريز ومن كرمان وأصفهان وغيرها

من كل صقع اشتهر بصناعة السجاجيد جميع هؤلاء يتجمعون ويتركزون فى بغداد ، فما يكادون يصلون إلى وادى دجلة حتى تقرب ميرتهم من النفاد فيأخذوا فى تزويد أنفسهم بما يسد حاجتهم المستقبلة ، وعملتهم التى يشترون بها حاجيات رحلتهم هى السجاجيد ، فمن الحجاج طائفة بعيدو النظر يجلبون معهم السجاجيد بقصد تدبير المال لرحلتهم بطريق التجارة العادية ببيع ما يحملونه من السجاد ، ولكن الكثيرين غير هؤلاء تضطرهم الحاجة إلى بيع سجادة الصلاة الخاصة بهم والتى بذلوا فى صناعتها من المال والمهارة ما بذلوا فيتلقفها تجار بغداد الذين مهما كانوا متمسكين لابد أن يدفعوا فى مقابلها ثمناً كبيراً لأنهم يقدرون أنهم سيبيعونها بثمن أكبر مما دفعوه .

ولم يتم صفو ابتهاجى ببغداد إذ هبت عليها فى الظهيرة عاصفة ترابية حجبت الشمس مثلما يحدث فى سماء لندن إذا هبت عليها أكثف ضبابة يضرب بها المثل من هذا القبيل وتزيد عاصفة بغداد بأنها لم تكن ضباباً بل تراباً دقيقاً وناعماً مثل مساحيق الزينة حملته رياح جنوبية لعلها قادمة مما كان يطلق عليها فى غابر الزمان جنة عدن Garden of Aden وما انتهت العاصفة بالمطر يتدفق فيغسل الجو مما علاه من تراب مهيل كأنه الوحل . فبلغ الكدر منى مبلغه حين لطخنى الوحل المتساقط من الجو وقد نثرته أقدام الأطفال الخفاة الذين اتخذوا منه زحافات تزحلقوا بها على الطرقات الضيقة كما يتزحلق الأطفال على الجليد فى بلادنا ، والتى لم يسلم منها حتى أفخر العربات من طراز ليموزين أصابها الرشاش فأصبحت كالعربات فى ميادين الحرب يرقشونها باللون الكاكى الرملى إخفاء لها ومخادعة للأعداء وهذه الوجبة الرملية التى أعدت لطعام غذائى فى بغداد القرن العشرين هى بعينها تلك الكارثة الرملية أو المحنة التى سفتها الرياح على الأراضى الزراعيـة فى أرض الجزيرة (ميزوبوتيميا) فأخفت فيها معالم الحضارات البدائية والراقية مما قد يرجع تاريخه إلى ١٠,٠٠٠ سنة قبل الآن .

فانها تهب عبر الخليج الفارسى فتغمر شومير يا Sumera و « اور » تلك المدينة الكلدانية Ur of the Chaldees (موطن ميلاد ابراهيم عليه السلام) و بابل .

ولما كان ناجى بك الأصيل مدير الآثار فى العراق مصمما على أنه إن كانت جنة عدن لها حقيقة فى الوجود ، فلا بد أنها كانت فى جنوبى أرض الجزيرة التى أصبحت الآن صحراء جرداء ، ولعل التراب الذى استنشقه وألوكه الآن بحسب دعواه من بقايا تلك الجنة (وكلمة « عدنم Edenum » الشومرية معناها « الجنة ») .

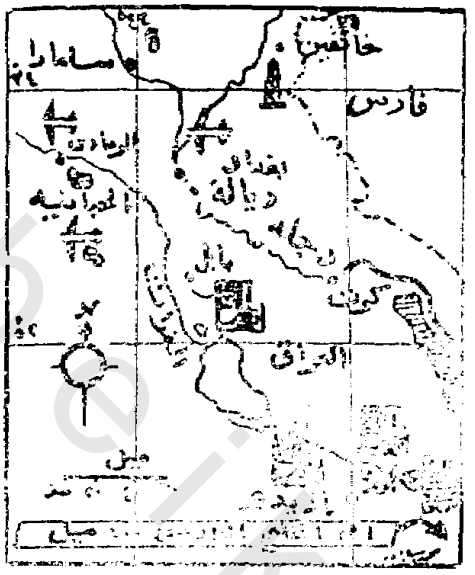

وحتى مع افتراض أن جنة عدن كانت فى الشمال أى عند منابع دجلة والفرات — وهو الظن الأشهر — فانى أيضاً أستنشق ترابها الآن وألوكه فى فمى ، فإنه التراب الذى حملته الرياح من الجنوب ، فإن جميع تربة المنطقة الفسيحة الواقعة فى حوض النهرين من جنوبى مدينة بغداد (التى تبعد الآن ٣٥٠ ميلا عن ساحل البحر) متكونة من الطمى الذى فتته المياه من الجبال العليا فى الشمال وجلبته إلى الجنوب . وحوالى ٤٠٠٠ سنة ق م امتد الخليج الفارسى شمالى بغداد إلى قرب سامرا (سر من رأى) Samara .

وفى العصور الشومرية أى عصر ابراهيم (عليه السلام) كانت أور Ur موطن ولادته واقعة على ساحل البحر وليست كما هى الآن على مسافة ١٥٠ ميلا منه . وما على إلا أن أتأمل نهر دجلة من شرفة فندق سندباد حتى أتبين كيف حدثت هذه التغيرات الأرضيه على مر الأزمان والعصور فإن مياهه امتزجت بالطمى الثقيل حتى أنك لتشهد على وجهها الأمواج تتدفق بخفة فوق بعضها البعض بل تتثنى متهادية مثل تثنى الثياب .

والأحداث التى حاقت بتلكم الحضارات المتوالية التى ازدهرت ثم زوت وماتت فى هذه الديار هى بعينها التى قضت على نظم الرى المتوالية فيها . فكلما حدث أن فاتحاً من الغزاة استأصل شعباً من الشعوب التى كانت متوطنة فى الإقليم ، تبع ذلك

انقراض حضارتهم ونظم الرى المعاصرة لهم ، وفى الغالب كان الأمر ينتهى بدمار إمبراطورية الفاتح نفسه .

والجزء المتوسط والجنوبى من أرض الجزيرة ليس لهما حظ من المطر يكفى للزراعة ولكن لديهم بلا ريب مقادير كافية من المياه ، بل لعلها أكثر من الحاجة ، حتى أن القوم اعتادوا كل سنة تقريباً أن يصرفوا عمداً كثيراً من مياه دجلة والفرات فى شمالى بغداد ليأمنوا طغيان المياه على العاصمة واكتساحها أمام الفيضان . كما يوجد فى الجنوب بين بلدتى كوت والبصرة Kut Basre مستنقعات الجواميس المائية Waterbuffalo swamps وأعنى بها مصارف مياه النهرين المختنقة .

ويستطيع السائح أن يشهد فى كافة أرجاء الصحارى ، الآثار المطمورة التى أبقاها الزمن من المدن التى ازدهرت ثم درست وحواليها التلال والكثبان التى تنبىء المتأمل عن آثار ترع الرى فى هذه الأقاليم . وإن مهندسى الرى فى هذه الأقاليم التى كانت منذ قرون عديدة أرقى بمراحل من طور البدائيين استطاعوا أن يحسنوا استخدام جغرافية دجله والفرات بالرغم من اعوجاج طبيعتها وشذوذها . فترى مثلا فى شمالى المنطقة التى تقوم فيها بغداد الحالية مياه الفرات أعلى مستوى من مياه دجلة ، والأمر بعكس ذلك فى جنوبى بغداد ، بقرب بلدة « كوت العمارة Kut el Amara » . (تلك البلدة التى اشتهرت بالحصار التاريخى فى الحرب العالمية الأولى) ولهذا استطاع المهندسون أن يحفروا قنوات الرى بقوة انحدار المياه من التلال بين النهرين ، وإن اتساع هذه الشبكة من الترع هو من الأدلة التى تساق على أن بابل كانت فى عصرها أغنى مورد للتلال فى الدنيا ولكن عبد الأمير العزرى Adul Amir Al-Uzri مدير الرى فى العراق يفند هذا الإفتراض بقوله إن هذه المساحات الفسيحة لم تكن لتزرع كلها فى وقت واحد ومهما تكن الحقيقة فإن القدر الظاهر يكفى لافهامنا كيف كانت الأحوال وكيف يمكن أن تكون .

ومعالم القنوات القديمة ليست محدودة بوهادها بل بالجسور التى كانت تحف بها ،

والتى هى الآن عالية كأنها التلال ، فقد كان من طريقة القوم أنه كلما حاول الطمى أن يردم الترع ، عمدوا إلى نزحه بالأيدى وطرحه على الجانبين ، وكلما ارتفعت الجسور إلى نحو عشرة أقدام عدلوا عنها وحفروا ترعا جديدة خلاف التى غمرها الطمى . ومع ذلك فإن عملية الحفر والردم المتوالى للترع أثرت من حين إلى آخر فى اتجاهات النهرين حتى أنهما طالما انحرفا من جهة إلى أخرى . فترى مثلا فى أحد جانبى بابل تجرى « ترعة الحلة Hillah canal » ويحيط بها فى الجانب الآخر نهر الفرات نفسه ، والافتراض السائد هو إن هذه الترع كانت من صنع الإنسان ولكن خبراء الرى الوطنيين يميلون إلى أنها كانت من صنع تحولات مجرى النهر نفسه وأن « المياه الحالية لمدينة بابل » هى التى كانت تحويلا من صنع الإنسان .

هذا مما يجعلنا نذكر قصة وليمة بلشازار Feast of Belchazzar ، و بلشازار هذا كان قائداً لمعسكر بابل فى القرن السادس ق . م فى أثناء محاصرة جيش قورش الفارسى لها Cyrus ، سخرت حامية المدينة المحاصرة من قورش عند ما شرع فى حفر الخنادق العميقة حولها ليجعل المدافعين عنها يموتون صبراً و يهلكون جوعا ولم يدر أن المدينة كانت محتفظة بالميرة التى تكفيها ٢٠ سنة تحت الحصار ، ولكن قورش اختار الليلة التى خطت فيها أصابع غريبة على جدران البهو المقامة فيه المائدة عبارة « مينى ، مينى ، ثيكل ، أبهارسن » التى ترجمتها « لقد أحصى الله مملكتكم وقدر أنها فقيرة ومحتاجة » ثم قام هو بتحويل مياه نهر الفرات إلى الخنادق وغزا المدينة من طريق مجرى النهر بعد جفافه .

ولكثرة ما كدروا صفو النهر بتحويل مجراه انتقم من المتعدين عليه بأنه تحول من نفسه إلى برك ومستنقعات ، أصبحت مباءة لبعوض حمى الملاريا التى قضت عليهم وقد وقفت عند ملتقى النهر بترعة الحلة استعرض هذه البقعة التى مات فيها الإسكندر الأكبر متأثراً بالملاريا . وهكذا توالى على القوم المرض والموت حتى أصبحوا عاجزين عن أن يفيدوا من نظم الرى أو يحرثوا الأرض وعجل هذا البلاء بسقوط دولتهم . لذلك نكون أقرب إلى الإنصاف إذا قررنا أن البوض هو الذى دمر بابل ولبس

المغول هم الذين أزالوها عن الوجود . فلم يبق منها ما يستطيع أن يلحظه المتجول إلا دلائل عظمتها الدارسة واتساع أرجائها المنطمسة . وهكذا تحققت فيها نبوءة أشعيا التي يقول فيها « يقول رب الجنود سأكنسك بمكنسة الفناء [1] » .

حقاً إن المجد الغابر الذي كانوا يطلقون عليه بابل نبوخاذ نصر Nebuchadnessar قد دالت دولته وعفت آثاره . فإنا إذا صرفنا النظر عن حروبه واستعباده لليهود وجدنا أعظم عمل قام به هو تفخيمه لمدينة بابل وتوسيع رقعتها لتبز نينوى بما أحرزته من عمارة وعمران ، فهو الذي جدد عمارة معبد ماردوخ والذي شاد القصر الإمبراطوري وبنى فوق سطحه الشرفة تعلو الشرفة وهي التي عرفت « بالحدائق المعلقة » إحدى عجائب الدنيا السبع ، كما جدد برج بابل الذي كانوا يطلقون عليه «زيجورات » وهو عمارة شبيهة بالهرم لكنها لم يكن مثل أهرام مصر المعدة للموتى بل كان لخدمة الأحياء حيث شاد على قمتها معبداً فسيحاً ، وإن طراز هذه «الزيجورات» مما اختصت به حضارة الأمم الغابرة في أرض الجزيرة أو ما بين النهرين ، ولقد كشف العراقيون حديثاً من بلدة أور Ur في جنوب الجزيرة إحدى هذه المعابد مشتملة على أربعة عشر معبداً كلها ترجع إلى عصور قبل التاريخ يعلو الواحد منها فوق الآخر

وكنت معتزماً الذهاب إلى أريدو Eridu وهو الموقع الذي تأسست فيه حضارة راقية حوالي ٤٠٠٠ سنة ق . م وإنها من القدم حتى لتفسر لنا الخبر الشومري الوارد في سفر التكوين الذي يقول « كانت الأرض بحراً عندما بنيت أريدو » وفضلا عن الأربعة عشر معبداً المتجمعة في عمارة واحدة فقد عثروا أيضا على آثار تدل على تركز شبيه بالتركز في مدينة يسبق أية حضارة مدائنية بخمسمائة سنة وقد لوحظ أن شكل البيوت في هذه الحلل مطابق كل المطابقة لشكل الأكواخ التي يسكنها رعاة الجواميس النهرية في مستنقعات الجنوب في عصرنا الحالي .

وقد عدلت عن الذهاب إلى إريدوة حين أقنعوني بأن ذهابي إليها سيكون مضيعة للوقت وأنني لن أجد الآن شيئا ملموسا في موقعها ، وإن نتائج أعمال الحفر في ثلاثة

(١) سفر « أشعيا » إصحاح ٤٧ .

مواسم مترامية قد ردمها التراب ثانيا . وأن القائمين بهذه الأعمال وجدوا أنفسهم مضطرين عند عودتهم فى كل موسم أن يبدأوا عملهم بأن يكشفوا عن البيت الحديث الذى اتخذوه مركزاً لأعمالهم والذى تغمره الرمال كل سنة فى فترة انصرافهم . فلما شاهدت الأتلاف والمضايقة التى يعانيها رجال الآثار فى هـذه الأيام اقتنعت بأن الصحراء ضنينة بفلك إسار إريدوة من قبضتها القوية .

أما مدينة بابل القديمة فكانت القبضة رحيمة بها فقد استطاعت بعثة ألمانية منذ ٥٠ سنة ان تكشف عن موقعها وأصبحت البقية الباقية من مدينة الأساطير معروضة لأنظار الراغبين وقد انتزعوا منها كل ما هو قابل للنقل وأودعوه دار الآثار مثل قطع البلاط الملون والنقوش البارزة قليلا Bos-reliefs وتركوا بقية الأطلال مباحة كأنها « محاجر » يستطيع البناؤون أن ينقلوا منها ما شاءوا من بقية المبانى أو أعمال النحت و يستخدموها فى المبانى الحديثة . ولا ريب أن هذه سرقة صريحة ومستأصلة لكل شيء حتى لايكاديرى المشاهد الآن إلا رسوما تشبه التصميمات الأولية لمايقال أنه آثار مدنية قديمة . ومما يلطف الشعور بالأسف الشديد أن أعمال الحفر القائمة الآن تجرى بطرق فنية و بعناية تامة مع المحافظة الكاملة عليها .

وأوشكت — مثل الكثيرين من الجوابين — أن أقع أسير الرغبة المتواصلة فى زيارة الآثار لوجود مئات الكثبان التى تطوى فى بطونها مئات من المدن الدوارس .

ومع ذلك فكل ما يعنينى من دراسة الآثار هو ما أستطيع اقتباسه من دروس نافعة فى استصلاح الصحارى و إعدادها للزراعة ، ولا يسع المتأمل فى هذه الخرائب القديمة إلا أن يستنتج أن انقلابا مناخيا عدا على تلك المدن الزاهرة فحولها إلى صحراء بلقع و إن رواية العبريين لحادثة الطوفان كما وردت فى التوراة تتقارب تقاربا وثيقاً من رواية الوثائق البابلية وهذه الوثائق بدورها تعتمد على أصول شومبرية ترجع إلى نحو ٣٠٠٠ سنة . ق . م . وبحسب الرواية البابلية رست الفلك على جبال زجروس Zagros Mountain فى الشمال الشرقى من خرائب بابل ، لكنها فى رواية التوراة

رست على جبل أرارات Ararat فى أرمينية ، وإن الحضارات القديمة التى صمدت آثارها على مر العصور لم يغرقها الطوفان ولكنها ظمئت حتى ماتت من الجفاف .

وكان من الممكن أن يتصور الإنسان أنه على مدى ٥٠٠٠ سنة قد هبطت نسب تساقط الأمطار على هذه الأقاليم حتى تحولت من حقول عامرة إلى صحراء غامرة . لكن هذا الافتراض لا يستقيم مع الحقائق الثابتة فإن الدلائل المستنبطة من آثار تلكم المدائن ، المغمورة الآن فى الصحراء تنطق بأنها كانت تعتمد فى معيشتها على سقوط الأمطار وعلى طرق رى صناعية شبيهة بالطرق الحديثة فلا مندوحة من التسليم بأنها لم تكن عوامل المناخ هى التى أحالت هذه الديار إلى صحار بل هى أيدى الإنسان التى أحدثت هذا الانقلاب . والدلائل ما زالت قائمة على أن دجلة والفرات وغيرهما من الأنهار الصغيرة الموجودة فى المنطقه قد غيرت مجاريها على مر الزمان فتركت المدن القديمة قائمة تعانى الظمأ فتموت . ومما يؤيد هذا الافتراض حفر ترع الرى القديمة ثم العدول عنها إلى ترع أخرى . فمثلا نهر الفرات قبل زمن رِمْ سِنْ Rim Sin كان يجرى غربى بلدة أور Ur ثم ينحدر إلى أن يصب فى الخليج الفارسى قرب بلدة إريدو ولكن رِم سِنْ عدل طريق النهر وجعله ينحدر مستقيما بجوار بلدة أور Ur فى حين أن سكان بلدة إيرك Erech فى الشمال أقاموا عليه سدا ليرووا منطقتهم وترتب على هذا التدخل من جانب الانسان أن بلدتى إريدو ولاجاش أقصيتا عن مجرى النهر فذبلتا ثم غادرتهما الحياة .

وقد أفضى هذا التدخل أيضا إلى خراب بلدة إرك Erech فأصبحت فى منأى عن النهر معزولة عن وسائل الرى كما تسبب عنه ردم مجرى الفرات القديم بما جلبه من طمى ثقيل فتخلفت عنه الأراضى الزراعية المشاهدة الآن بين بلدتى أور و إريدو و بين البحر جعلت من دجلة والفرات رافدين يغذيان شط العرب .

و بابل المعروفة بأنها مقبرة الحضارات القديمة فى الامكان أن تصبح مرة أخرى إحدى الجنات الفيحاء فى العالم الحالى لكن هذا يتوقف على دراستنا عبر الماضى وتدبرنا النذر التى تحذرنا من أخطاء السابقين .

ومع ذلك فإنا لا نستطيع أن نتصور أنه فى وسعنا أن نصبح أرقى من تلكم الشعوب الغابرة التى تداولت العيش والفناء فى هذا الاقليم ، لأن التاريخ يحفظ للشرق الأوسط أنه كان مهد الثقافة والأديان والفلسفة كما نبتت فيه البذور الأولى للكتابة والحساب ونظام العملة والتبادل التجارى .

ومن الأنصاف أننا كلما تذاكرنا الديون التى علينا لقدماء اليونان والرومان أن نمعن فى الانصاف بالاعتراف أيضاً بفضل تلكم الشعوب التى نهل منها اليونان والرومان حضارتهم الأولى .

فلا يسع المنصف إلا أن يحنى هامته إجلالا للكلدانيين الذين وضعوا أسس علم الفلك وصاغوها فى وضع علمى صحيح ، فقد رصدوا الكواكب مدة ٣٦٠ سنة متوالية دون أن يصيبهم كلل ولا ملال . واستطاع عالم كلدانى عاش فى الألف السنة السابقة على ميلاد المسيح (عليه السلام) أن يحدد طول السنة الشمسية بأنه ٣٦٥ يوما و ٦ ساعات و ١٥ دقيقة و ٤١ ثانية وأثبتت آلات الرصد الحديثة أن هذا التحديد لا يزيد عن أحدث تقدير إلا بمقدار ٢٦ دقيقة و ٢٦ ثانية ، كما أن تقديره لطول قطر القمر كان أدق بكثير من تقدير كوبيرنكس Copernicus الذى يذهب معظمنا إلى اعتباره واضع علم الفلك الحديث .

وقد عثروا فى حفائر تل الهارمل Tel El Harmel بقرب مدينة بغداد قبل زيارتى بنحو ثلاثة أشهر على ألواح تثبت أن عالماً رياضياً كلدانيا برهن نظريات أقليدس Euclid (الذى كان يعيش حوالى ٣٠٠ سنة ق.م) أى قبل عصره بنحو ٢٠٠٠ سنة ولم تكن هذه الألواح إلا جزءاً ضئيلا جداً من « الكتب » التى عمرت بها « المكتبة » والبالغ عددها ٢٥٠٠ كتاب . واحتوت المؤلفات المخطوطة على الصلصال كتبا مدرسية لتعليم الجغرافيا والتاريخ والفلك والنبات مما دل على أنه كانت توجد فى هذه البقعة « جامعة » وقد سن حامورابى Hammurabi الذى كان معاصرا لبطارقة العهد القديم (التوراة) ١٧٢٨ — ١٦٨٦ ق . م مجموعة من القوانين ، وكانت شرائعه بدورها مستمدة من القوانين وقواعد العرف المتبعة عند أسلافه الشوميرين ، وكانت فى

مجموعها مشابهة للشرائع العبرية الزمنية أو الوضعية (تمييزاً لها عن الشرائع المنزلة) .

وقد احتوت شريعة حامورابى على قوانين ثانوية (أى لوائح) لضبط الرى مثل النص « إذا فتح شخص ترعته للرى وأهمل ملاحظتها حتى طغت مياهها على حقل جاره فاتلفته وجب عليه أن يعوضه مقدارا من الحبوب بنسبة غلة الحقل التالف » .

وليست إفادتنا من طرق القدماء الفنية بأقل من إفادتنا من حكمتهم النظرية . وما الآلات الحديثة التى نستعملها الآن إلا عوضا عن أيدى الرقيق الذين كانوا يعتمدون عليهم فى أعمالهم اليدوية والذين كانوا يجلبونهم من البلاد المجاورة لهم نتيجة للغزو والتغلب والأبعاد عن الأوطان ، ومثال ذلك إبعاد يهود فلسطين إلى بابل . وحتى بالنسبة للآلات البخارية والكهربائية الحديثة نشهد الشرق الأوسط الآن يسترد ما ضاع من عهد ماضيه المجيد ويتمسك بتراثه عن أجداده الأوائل وذلك فى مادة البترول المتخلف عن عصورهم البدائية تحت طباق الصحراء .

وليست حقول البترول العظيمة فى الموصل إلا الطبقات السحيقة تحت مدينة نينوى القديمة وأمبراطورية الأشوريين الدارسة .

وما زال العراقيون يرددون المثل الذى كان يردده أجدادهم وهو « قد كان فى سالف الزمان إذا صاح الديك فى الموصل سمع صياحه فى البصره » ، ولا بد أنه ديك يصم الآذان ذلك الذى يدوى صوته إلى ٧٠٠ ميل ، ولكنهم قصدوا بهذا القول أن الزراعة كانت ممتدة ومتصلة فيما بين الموصل شمالا والبحر جنوبا حتى أن ديكا يستطيع أن يبدأ صياحا متتابعاً فى وديان متواصلة من أقصى البلاد إلى أقصاها . وقد وضعت الآن تصميمات ورسمت الخطوط (ولو أنها ما زالت حبرا على ورق) لبعث ذلك الماضى السحيق المجيد .

وأول إصلاح أساسى يجب أن يكون هو ضبط الفيضانات فى حوض الفرات ودجلة فانها فى النظام الحالى جامحة غير محكومة وليست الطريقة البدائية القاصرة على فتح الثغرات فى جسور النهر لصرف المياه الزائدة إلى أرض قاصية عن مدينة بغداد

لتخليصها من الغرق بمجدية لأنها تؤدى إلى إغراق مساحات كان من الواجب إعدادها للزراعة . ومن المشاريع المعدة للاصلاح مشروع وشيك التمام وهو القريب من المدة الحبانية والمقصود منه تحويل مياه نهر الفرات إلى بحيرة عذبة وإذا زادت مياهه عن الحد تصرف إلى المنخفض الملحى المسمى بحر الملح . ويكون من الممكن حينئذ إعادة المياه من البحيرة العذبة بواسطة قنوات فى مواعيد دورية ، فتضاعف بهذه الوسيلة مياه الرى فى فصل الصيف وهو موسم الجفاف فى وادى الفرات ويترتب على ذلك بالتالى مضاعفة المحاصيل الزراعية .

وهناك مشروع آخر أكثر من السابق أهمية واتساعا فى وادى دجلة يراد به تحويل السيول المنهمرة إلى وادى ثرثر Wadhi Tharthar وثمت مشروع ثالث كبير وهو إقامة خزان على نهير ديالا Diyala يراد منه استصلاح مساحة شاسعة قدرهـا ٣٠٠ر٠٠٠ فدان بين نهرى دجلة وديالا وجعلها صالحة للزراعة .

وتبلغ التقديرات المالية اللازمة لإتمام هذه المشروعات الثلاثة ١٤ر٠٠٠ر٠٠٠ جنيه وليس هذا بالمبلغ الكبير إزاء ما يرجى تحقيقه منهـا من استرداد بعض النمو الزراعى الذى ضاع فى الماضى ومن التمهيد للمزيد فى المستقبل .

وثمت مشروعات عظيمة ما زالت فى حيز الدرس وحساب المال اللازم لإتمامها يراد منها تجفيف المستنقعات الجنوبية وإعدادها للزراعة .

وإتمام هذه المشروعات لن تقف فائدته عند الرخاء الإقتصادى بل ستتعدى ذلك إلى تحسين الحياة الإجتماعية العامة فى العراق . ذلك لأن العراق مثل سائر الأقطـار العربية يسير على طريقة معقدة فى كيفية ملكية الأرض واستغلالها . طابعها وجود عدد من كبار الملاك يحوز الواحد منهم مئات الآلاف من الأفدنة فى البقعة الواحدة . ولما كانت الزراعة موسمية استطاع هؤلاء الملاك الكبار أن يقيدوا من عادات البدو الرحل الذين ألفوا التنقل لارتياد المراعى ولكنهم يهبطون المدن فى مواسم الزرع والحصاد ويؤجرون خدماتهم بواسطة عقود موسمية بين شيوخهم وبين كبار الملاك وهذا العرف يؤدى إلى أسوأ التقاليد التى يجب على الحكومة أن تعمل على تلافيهـا . ولكن

كبار الملاك من القوة بمكان لايعين على الإصلاح الزراعى بطريق توزيع الملكيات الكبيرة فلا مفر من محاولة الإصلاح عن طريق آخر وهو استصلاح أراض جديدة ومحاولة إقرار العرب الرحل فيها وبذلك يحرم كبار الملاك من زيادة العرض فى العمال الزراعيين وهذا يؤدى إلى رفع أجورهم وتحسين حالهم وقد أخذوا فعلا فى اتباع هذه الوسيلة للاستقرار قريباً من مدينة كوت حيث تجرى عمليات الاستصلاح وتنظيم الرى فى أراض واسعة مقسمة وتوزيعها قطعاً لا تزيد الواحدة منها عن ١٠٠ فدان للمزارع الواحد .

وسيأخذ المشروع بنظام التعاون الزراعى الذى تسهم فيه الدولة بتقديم الآلات والبذور وأخيراً فى التسويق [1] . ولما كانت العراق قطراً غنياً بزيت البترول كانت الخطة الآن ترمى إلى تحويل العمل جميعه فى البلاد إلى الآلات التى تدار بالبترول .

وفضلا عن مشاريع الإستصلاح توجد فى البلاد عدة محطات للتجارب الزراعية إحداها فى أبو الجرايد Abu Ghraid بقرب بغداد فى مساحة ١٢٠٠٠ فدان مخصصة لدرس التربة وتربية الحيوانات والنباتات وإكثارها بجلب أنواع من الخارج وتجربة استنباطها فى البلاد بما يناسب حاجاتها فيشهد الزائر فيها التجارب على نباتات القمح والشعير والقرطم والكتان والقطن والفول السودانى والذرة وقصب السكر .

وقد اتضح للباحثين أن الحبوب فى منطقة الأنهار تربت ونمت قديما من الحشائش الطبيعية ولكن على مر الزمن ساءت أنواع هذه الحبوب الوطنية مما جعل الخبراء الزراعيين يحاولون الإفادة من أحسن التجارب العالمية وذلك بجلب أفضل الأنواع وأقلمتها فى البلاد .

أما فى خارج منطقة الأنهار فتوجد المناطق الشاسعة من أراضى المراعى . ويعمل العلماء على تزويد هذه المناطق بأفضل أنواع النباتات الصالحة لعلف المواشى والأغنام ومما فكروا فيه إلقاء البذور فى هذه المناطق بالطائرات من الجو .

وأنهم يرون — كما يرى تيلور المراقب الزراعى فى طرابلس — إمكان قذف

---

(١) وقد عالجت ثورة مصر فى ٢٣ يولو سنة ١٩٥٢ مثل هذه المسألة بقوانين تحديد الملكية الزراعية والأكثار من جمعيات التعاون الزراعى مع إلغاء الوقف الاهلى . (المعرب)

البذور دون أن تنزع من سنوفها ، وإن هذه السنوف الدقيقة تختزن سقاء وغذاء كافيين للمحافظة على حيوية البذور وتمكينها من التأصل فى التربة الجافة .

ولما كانت العراق أعظم أقطار الشرق الأوسط تربية للماشية يؤمل الخبراء الزراعيون أن يجعلوا منها تكساساً ثانياً Second Texas فى الثروة الحيوانية وهنالك تستطيع أن يكون لها تجارة صادرات واسعة من اللحوم ، ويبلغ تعداد أغنامها فى الوقت الحاضر ١٢,٠٠٠,٠٠٠ رأس ، ويقدرون إمكان زيادة هذا العدد إلى ضعفيه على الأقل .

وإنهم يقومون الآن بإدخال أصناف خاصة من الماشية والأغنام الصالحة للأحوال الجوية والطبيعية فى البلاد فمثلا يريدون أن يدخلوا أغنام جنوبى الجزيرة العربية لينتجوا منها صوفا جيداً ناعما .

وتزرع العراق ما يزيد على ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ من نخيل البلح وهذا يبلغ نحو ثلث هذا الصنف فى الدنيا كلها ، ويلى محصول البلح مباشرة محصول الأرز الذى يزرعونه فى الفياض الجنوبية .

وإحدى مشكلات العراق انخفاض نسبة كثافة السكان ولأنه لكى يستطيع خدمة زراعة جميع أراضيه القابلة للزراعة يحتاج إلى عدد من السكان أكبر من عددهم الحالى البالغ على وجه التقريب ٥,٠٠٠,٠٠٠ نسمة وهذا مجرد تقدير لأن الصحراء تقوم دائماً عقبة دون الإحصاء الدقيق لأن قبائل البدو تحاول فى الغالب التهرب من الإحصاء كما أنهم بلا استثناء لا يذكرون أزواجهم فى الإحصاء . ويرى بعض الخبراء أنه لو حاولت العراق أن تسد هذا النقص فى عدد السكان بآلات تدار بزيت البترول الموجود فى حقولها تستطيع — حتى مع عدد سكانها الحالى — مضاعفة محاصيلها الزراعية وتصبح قطراً ذا تجارة صادر واسعة .

وعلى كل حال تستطيع العراق أن تهيىء الغذاء لأضعاف عدد سكانها الحاليين التى لا تغذيهم الآن إلا بمستوى ضعيف جداً ، ويقدر المؤرخون أن أرض الجزيرة فى عصر هارون الرشيد وعصر ألف ليلة وليلة كانت تغذى عددا يتراوح بين ٣٠ و٤٠ مليونا من النسمات ، وأن مدينة بغداد وحدها كان تعداد سكانها ٢,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ومما لا شك فيه أنه كان يوجد فيها ٣٠,٠٠٠ حمام عام !

الفصل التاسع

سجادة فارسية — من الملح

لم يكن روبن Robin وهو الطفل البالغ من العمر أربع سنوات فقط متأثرا بقراءة التاريخ وكذلك لم يعر الجبال الشاهقة تكسو قننها الثلوج أى التفات بل انطوى على نفسه منقبضاً لأن رحلته الجوية هذه كانت أول ما جرب فى حياته من نوعها ثم أخذ يسرى عن نفسه فى ساحة المطار بالوثب والجرى من ناحية إلى أخرى يبدو عليه القلق والإضطراب ، ومع ذلك فإنهم لم يشفقوا عليه حين شرعوا يلبسونه كمامة وهو حديث العهد بعملية استئصال اللوزتين ، ومعاناته من رائحة المخدر الذى كان يبغضه أشد البغض . ولم يستطيع أحد أن يقنعه بأن الأكسوجين ليس هو المخدر القبيح الذى عانى منه ما عانى فى المستشفى .

وحينما أدار وجهه لم يشهد إلا المسافرين وبينهم أبوه وأمه ، وقد لبسوا جميعا الكمامات مثل تلك التى شرعوا يلبسونها له فزادت هذه المناظر فى مضايقته ، وكلما حاول ناظر الطائرة أن يغريه ويحسن الأمر له ، لم يزده هذا إلا استعصاء وصراخا حتى بدت على وجهه الزرقة من شدة ما كتم من تنفسه ، وبدأت مقادير الأكسوجين المحدودة فى الطائرة تنفد كلما زاد ارتفاعنا إلى المستوى الذى كان على الطائرة أن تحلق فيه ، فمن جراء ذلك هبط نشاط الطفل والتف حول نفسه من ثقل شعوره بالنوم وبجواره الكمامة ينبعث منها الأكسوجين حثيثا للمحافظة على حياته .

وتقطع الطيارة الحديثة المسافة بين بغداد وطهران فى ساعتين ونصف ساعة ، أى فى زمن أقل مما تقطع فيه المسافة بين لندن وبيرمنجهام بقطار السكة الحديد . وتعبر

فى رحلتها سلسلة جبال زجروز Zagros التى كانت فى العصور الخوالى خط تقسيم ليس للمياه بين الأنهار ولكن للثقافات المختلفة بين الشعوب . متخطية تلك المعابر الجبلية الخطيرة التى انحدر منها الجنس الآرى فى أقدم العصور ومن بعده الجنس المغولى فى الأزمنة الوسطى متجهاً إلى الغرب ومن قبل عبرها الاسكندر الأكبر فى اتجاهه إلى المشرق قاصداً إلى بلاد الهند .

وارتفعت الطائرة إلى ١٧٠٠٠ قدم قبل أن تعبر سنام الجبل "the Hump" لأن الجو كان مضطربا غير مأمون الجانب ، فكان الطيار مضطرا لأن يتفاهم بلطف مع كثير من القمم الشاهقة قبل أن يبزغ من بينها على وجه هضبة إيران العليا وعندما اقتربنا من طهران التى تقع فوق مستوى البحر بسبعة عشر ألف قدم شمخت أمامنا سلسلة جبال البورز Elburz التى تفصل إيران الوسطى عن جنوبى بحر قزوين ومنها جبل دامافاند Damavand البالغ ارتفاعه ١٩٠٠٠ قدم والذى يلوح لناظره كأنه هرم فى شكل جبل تعلوه الثلوج .

ومع ذلك كان اهتمامى لمناظر الجبال أقل بكثير من اهتمامى لرؤية السهول والوديان المنبسطة أسفل منها لأنها كشفت لى عن أمر لم ينبهنى اليه أحد من قبل ولعل الطيار الذى عبره عشرات المرات لم يأبه له قط . ذلك أننى لاحظت كلما اقتربنا من طهران ما أدهشنى وهو آثار ضرب شديد بالقنابل لا فى العاصمة نفسها لكن فى آلاف من الأميال المربعة من الريف المجاور لها . تلك هى حفر وفوهات لا تعد ولا تحصى — شبيهة بنقر آثار الجدرى فى الوجوه . مما لم أشهد له مثيلا من قبل إلا فى غربى أوروبا من آثار الحرب العظمى . حقا أنها كانت تشبه بقعة رشقت كلها بالقنابل ، لكن بأسلوب آخر غريب ، ذلك لأنها امتدت فى صفوف منتظمة ، كأن القنابل غرست غرسا وفى صفوف متقاطعة .

فكان طبيعياً بعد ما فرغت من مهام الجمرك والعملة وجواز السفر أن يكون أول ماأسأل عنه هو تلك الفوهات المتراصة المتقاطعة .

وقد انقضى زمن كبير قبل أن أصل إلى حل أو مفتاح لهذه الغرائب لاسيما وأن المقيمين فى إيران أنفسهم ينظرون إلى القنوات qanats كأنها أمور بديهية ليست محل تفكير كما شاهدتها وأنا محلق فى الجو . كما لحظت أن المؤلفات الفارسية كلها لم تعرها عناية قط ولو أنها — ولربما لأنها — طبيعية مألوفة لبلادهم فلا تلفت الأنظار .

والعجيب من أمر هذه القنوات أنها لم تقف بتفكيرى عند ريف إيران فقط بل نقلتنى ٥٠٠٠ سنة إلى الوراء فى التاريخ القديم .

فحقيقة هذه القنوات هى أنها عيون أو آبار ممتدة امتدادات أفقية تحت الأرض ويملوها إلى السطح فتحات رأسية ، وما الفوهات التى دهشت لها إلا تلك الفتحات الرأسية . وبين الفوهة والأخرى مسافة ٥٠ ياردة تقريبا ، وكان يستخدمها عمال المناجم لإخراج ما يحفرونه من التربة ، فكانت لها وظيفتان فهى آبار ومنافذ تهوية فى الوقت الواحد فكان عمال الحفر ينزلون إلى القرار الصخرى الذى يجرى من فوقه المجرى ثم يحفرون دهاليز على طول السفح المنحدر تجاه الطبقة الحاملة المياه ، ولكى يحفظوا اتجاهاتهم سليمة تحت سطح الأرض كانوا يستعملون نوعا بدائيا من البوصلة المغنطيسية وإن عملهم هذا هو من القدم بعهد بعيد حتى أن الفرس ليزعمون أنه الأصل فى اختراع البوصلة :

لكن الصينيين والعرب كلاهما يدعى لنفسه هذا الفخر ، إذ يقول الصينيون انهم منذ القرن الثالث قبل الميلاد استعملوا حجر المغنطيس أو قطعة من الحديد المدلوكة به لتتحرك حركة تلقائية إلى الشمال المغنطيسى هذا والثابت أن العرب استعملوا فى القرن الثالث عشر البوصلة المغنطيسية فى شرق البحر الأبيض المتوسط وسواء أكان الفرس أول من اخترع البوصلة أم إنهم فقط نقلوها عن الشرق الأقصى فلهم على كل حال فضل ادخالها إلى بلاد البحر الأبيض المتوسط .

وكان فى إمكانهم مد القنوات الأفقية إلى مسافات كبيرة وأطول قناة عثر عليها من هذا النوع هى القريبة من يزد Yezd أما القنوات الرأسية فأعمق ما عثر عليه منها

فهى قناة جوناباد Gunabad فى شرق بلاد فارس إذ يبلغ عمقها ١٠٠٠ قدم . ومتوسط جميع الأعماق ٦٠ قدما ومتوسط الأطوال خمسة أميال .

ويوجد فى أنحاء بلاد إيران ٥٠,٠٠٠ قناة قوة ما يستخرج منهـا تتراوح بين نصف قدم مكعب وخمسة أقدام فى الثانية ، والمهم أن تاريخ انشائها الأول يرجع إلى عهود قديمة جدا ، فقد ثبت أن بعض هـذه القنوات القريبة من بلدة برسبوليس Persepolis (أى مدينة الفرس) يرجع تاريخ حفرها إلى ٢٠٠٠ سنة قبل الآن وقد تكون هذه القنوات شيئاً عادياً بالنسبة للايرانيين أنفسهم ولكنها فى نظر العلماء عجيبة تستلفت كل أنظارهم . حتى أن كلية باليول التابعة لجامعة اكسفورد Balliol College Oxford أرسلت فى صيف سنة ١٩٥٠ بعثة خصيصاً لفحص القنوات القريبة من كرمان فى داخلية بلاد إيران والوقوف على بعض الأسرار والاحتمالات الطبيعية الحبيسة فى داخلها والتى لا يوجد لها مثيل فى غيرها من الأقاليم .

ونظريتهم هى أن الانخفاض العظيم الذى انفرج به سهل إيران العظيم وطوقه بسلاسل الجبال المتراصة وراء بعضها البعض والتى تفصل بحر قزوين عن الخليج الفارسى والتى كان من أثرها قباب البترول الذى هو كنز ثروة إيران لا بد أن هذه الظاهرة الطبيعية الهائلة حبست فى داخلها مع هذه الأنهار السفلية صوراً مختلفة من الأحياء البدائية فهم يعتقدون مثلا أن هناك نوعا من السمك الأبيض الأعمى غير المعروف الآن فى أية بقعة من بقاع الأرض . ويتبع ذلك بالضرورة وجود الكائنات البدائية التى تعيش عليها هذه الأسماك . وقد تاقت نفسى لأن أقوم بمثل هذا الفحص تحت الأرض . ولكن الظروف لم تسعفنى بالأسباب المعينة على ذلك . فخرجت لاتتبع سير القنوات التى تبدأ فوق قرية جلهك Gulhek الجبلية فى شمال مدينة طهران والتى يقع فيها مصيف السفير البريطانى ، ولكن لسوء حظى سقط أحد العمال فى بئر عمقها ١٥٠ قدما ، فأنزلوا إليه برافعة خشبية (ونش) رجالا أنقذوه بعد أن كسرت إحدى ساقيه ، نزلوا من بئر رأسيه ثم حملوه على المنحدر الأفقى فوق مجرى الماء مسافة نصف ميل تقريباً وأخيراً

جذبوه إلى سطح الأرض من بئر رأسية . هذه الحادثة الأسيفة وما اتفق من أن القناة كانت فى موسم فيضانها صرفاتى عن المخاطرة فى سبرها والكشف عنها .

والغالب أن هذه القنوات تكون شركة بين فريقين من ملاك الأراضى : فريق يحوز أرضاً عالية ولكنها فقيرة التربة وفريق آخر يملك على مسافة بعيدة من الأولى أرضاً جيدة ولكنها فى حاجة إلى الماء والمعتاد أنهم لضمان ائتلافهم يرتبطون مقدما بصلات النسب والمصاهرة بين رجال ونساء الفريقين ثم يشرعون فى إنشاء هذه المنابع العذبة شركة بينهم لرى العلو والسفل على السواء .

فإذا فاضت هذه القنوات وكونت غدرانا سطحيـة يوزعونها على ما يسمونه « بالجيوب » "jubes" وهى الجداول الواسعة تروى القرى والمدن حتى مدينة طهران نفسها . وتجرى هذه الجيوب مكشوفة فى وسط شوارع المدينـة ومن المحتمل كما وصفوها لى أن تكون خطراً يهدد حيـاة المارين فى الليالى المظلمة ومنها يستقى الناس المياه لشرابهم وغسيلهم ولكن من الحمق كل الحمق أن يشربهـا الإنسان قبل إغلائها لتطهيرها بعد مرورها أسفل من القرى والمنازل الكثيرة ، ولا ريب أن نفسى لم تكن لتقبل أن أشرب من ذلك الماء بعد ماشاهدت منه ما شاهدت ! وأما مياه الشرب فى مدينة طهران فتسمى « السفارة البريطانية » لأن جهاز الترشيح الوحيد فى المدينة داخل فى نطاق السفارة ، ومنه يحمل السقاؤن « الماء الصحى » و يبيعونه للفنادق والمساكن الخاصة .

وهذه الجيوب المائية المكشوفة فى داخل المدينة والتى لا مفر من تلوثها بطريقة ما مما يدهش له الإنسان كل الدهش و بخاصة لأنهـا فى بلاد زرادشت Zoroaster الذى تقول القاعدة الثالثة من شريعته « العناصر وهى — الهواء والنار والماء والتراب — طاهرة و يجب ألا يتعدى عليها أحد بالنجاسة » . والحق أن الزرادشتية الآن أقلية ضئيلة فى إيران الذى هو بلد إسلامى ، ولكن مبادئه ما زالت متبعة ضمنا [1] فقد كان

(١) ليس العيب فى الشرائع ولكنه فى أتباعها المهملين فإن الاسلام يقرر فى صراحة وبقوة (النظافة من الايمان) (المعرب)

زرادشت نبي الفرس قبل أن يدخل بلادهم الاسلام و يعتقد البعض أنه ولد فى القرن السابع قبل ميلاد المسيح (عليه السلام) ، وقاعدتاه الأخريان المهمتان هما : «الزراعة وتربية المواشى هما العملان الشريفان دون غيرهما . » « جميع الكون صراع بين الخير والشر » وإحدى مميزات الزرادشتية تقديسهم « للنار » حتى قيل عنهم أنهم « عبدة النار » وهذه الأسطورة لها مايعللها فى بلد تنفجر فيها النيران من باطن الأرض مثلما تنفجر عيون المياه فى غيرها حتى ليمكن إرجاع حقول البترول العظيمة فيها إلى أصل عبادة النار التى لم تخمد بعد والتى ما زال القسيسون الزرادشتيون يذكونها على مسافة أميال قليلة شمالى عبـدان تلك البلدة التى تتفجر عندها عيون زيت البترول وتطفو إلى سطح الأرض .

ولم تكن مغادرتنا لمدينة طهران قاصدين إلى الصحراء القريبة منها حادثاً عرضياً يشبه استئجارنا لعربة أقلتنا من مصر إلى برية سيناء ، فإن الترتيب كان قد عمل لكى أنضم إلى قافلة مجهزة بعربات أعدت إعداداً كاملا قامت به إدارة مشروع السبع السنوات منذ أكثر من شهرين خصيصاً لخدمة بعثة الجيولوجيين السويسريين الذين اعتزموا ارتياد بعض أجزاء سلسلة الجبال الفارسية — البلوخستانية ، من يظنون أنه لم يسبقهم اليها أحد من الناس ، وهى بقاع منعزلة عن المسالك التى سارت فيها قديماً الجماعات

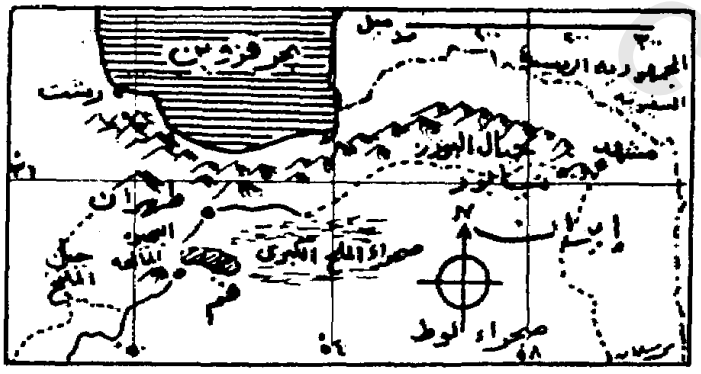

الهندية الآرية فى هجرتها إلى الغرب وعن الطرق التى تسلكها وسائل المواصلات الحديثة . فكانت الخطة المرسومة لهم أن يخترقوا صحراء بحيرة الملح الكبرى فى شمالى

البلاد واقليم لوط Lout فى الجنوب الذى لا يضارع بحيرة الملح الكبرى فى ملوحته ولعلهم كانوا يعتزمون قضاء بقية الفصل فى منطقة القطب الجنوبى ، مما أوجب عليهم أن يكونوا مزودين بكل ماعسى أن يلزمهم فى رحلتهم اليه بحيث يستكفون استكفاء تاما .

وكانت القافلة مكونة من ثلاث عربات ذوات عجل غليظ من طراز البالون وعربتين من طراز جيب يقودها سواقون ميكانيكيون وكانت هذه بصفة خاصة تحت تصرف أربعة من علماء طبقات الأرض هم : بروفسر هيم Prof. Heim ودكتور ك . ت . جولدشميد Dr. K. I. Goldschmid. ودكتور هو بر Dr. Huber ودكتور ستوكلين Dr. Stocklim ومسز هيم ، التى رافقتهم باعتبارها مدبرة المنزل لرجال القافلة . وكانوا يجوبون الصحراء بقيادة المدير الجيولوجى فى فارس دكتور ب . مصطفى Dr. B. Mostafa ، الذى رافقهم فى الرحلة إلى الجنوب ، وكان يعتزم العودة ليجهز لوازم الرحلة للشمال ، وكان من حظى أنى رافقتهم فى جانب من رحلتهم فى بحيرة الملح الكبرى « داشتى كفير » فما كدنا نجوب جانباً من البحيرة حتى بدا على دكتور جولدشميد وكنت رفيقه فى العربة نشوة من الفرح مثلما يبدو على طفل أدخل قاعة السينما لأول مرة ، فقد تملكه الطرب وسلبت لبه المناظر التى لم يكن له عهد بمثلها ، وغمرته هزة الفرح فهو ثمل بخمرتها فكان بين الفينة والفينة ينبه السائق باستعمال آلة التنبيه تحذيراً لباقى أفراد القافلة حتى لا ينقطعوا عنهم وهو الأمر الواجب فى مثل هذه الرحلات فى البقع المنعزلة عن العمران انعزالا تاما ، ولا نجاة للجماعة إلا أن كل عضو منها يعتبر نفسه مسئولا بالتضامن عن جميع الرفقاء . لكنه كان يأمر بالتوقف ريثما يصعد على ربوة ليلتقط صورة شمسية . فلا يسع رجال القافلة جميعاً إلا أن يقفوا ويتجمع كل فريق منهم حول صخرة تلفت نظرهم فيأخذون نماذج منها ويلتفون حولها لفحصها بالعدسات المكبرة وبينما هم كذلك إذ بهم فى هرج شديد وحماسة مختلطة هذا يثب وذاك يصفر وأبصار الكل شاخصة تجاه طبعة حيوان متحجرة فى الصخر مما

يدل على أنها من عصور قبل التاريخ حين لم تكن الهضبة تكونت بعد بارتفاعها من قرار البحر العميق إلى سطحها الحالى الشاهق فكأنهم والحالة هذه أطفال من جوالة الكشافة عثروا على أثر أقدام حيوان فثاروا ليقتفوا أثره !

ورفيق جولدشميد وهو ذلك العالم الذى قضى حياته فى اختبارات ومشاهدات جيولوجية لم يسعه أن يكتم إعجابه وتأثره بهذه المفاجآت . وهأنذا بعد تجوال عدة أسابيع فى الصحراء ، أسرح الطرف فى مناظر موحشة ومهجورة ، أجدنى أصيح بأنها « حسنة جدا » . وإذ بجولد يصيح غاضبا « حسنة جدا ؟.. »

« لا . لا . بل هى جميلة جدا . »

وقد يرى البعض أن صفة الجمال المسندة إلى العراء القاحل فى غير موضعها ، لكن يحسن بهؤلاء الناقدين أن يلحظوا أنه كان ينظر إليها بعين الجيولوجى ، عين الباحث الذى أمضى سالف حياته فى الغابات الاستوائية فى أمريكا الوسطى والجنوبية حيث تغطى الغابات الكثيفة آثار التشكلات الجيولوجية ، أما هنا فهى جرداء لا يغطيها التراب ، وتشققت والتوت حتى انكشف منها كل عرق ، فأسفرت بمحاسنها للطامعين فهو فى موقفه هنا شبيه بعالم الأحياء الذى قد لا يعير نظرة إلى نجمة فاتنة من نجوم السينما ، فى حين أنه يتيم بقطاع ميكروسكوبى لخلايا الأنسجة ولا يسعنى إلا أن أصدق القراء القول ، بأننى وأنا الذى تعلمت ما ليس بعده مزيد من أن الصحارى أبعد شىء من أن توصف بأنها عراء مطلق يتصبب بالألوان والأشكال المحدودة المتكررة ، تواردت على خاطرى الألوان المختلفة من الصفات التى لا حصر لها ولا نهاية حينما شاهدت بحيرة الملح الكبرى ولكننى حرت بأيها أفيها الوصف ، فقد انصبت على سطحها أشعة الشمس صبا ، حتى جعلتها تتوهج إلى درجة البياض وتتشح بأردية رقراقة هى من نسيج الحرارة نفسها ، واستند ظهرها على جبال البورز ذات القنن الثلجية ، وهيهات هيهات أن تكون ثمت نهاية للأفق من جهة المشرق ، فما هو إلا سراب ارتسمت فيه الصور من كل صنف مما لم أقف على شبيه له من قبل وأنا الذى جبت القفار وجربت السراب من كافة فنونه وألوانه ، لكن لم يكن ذلك عجباً فإنه سراب بحيرة الملح الكبرى !

والسراب هو خداع بصرى شائع فى صحارى المناطق الحارة ، فترى الرمال — ولكنها فى مشهدنا الخالى الملح — تشتد وطأة الحرارة عليها فيتمدد الهواء المغلف لها ويتغير بسبب معامل انكسار المرئيات من خلفه . فيظهر كل شىء من خلال مجموعتين من الأشعة الضوئية انكسرتا بسبب اختلاف كثافة الطبقات الجوية ، فترى صورة السماء كأنها هبطت إلى مرايا الرمل (وفى مثالنا الملح) وامتزجت بانعكاسات الأجرام العديدة الواقعة وراء الأفق ، ونتيجة لذلك تعلق السراب فوق بحيرة الملح كأنه بحر خضم صافى الأديم تخللته الجزر والفياض الاستوائية ، وإذا رأيت ثم رأيت الجمل الذى يكنون عنه بسفينة الصحراء — فتشهد فيه حقا مخلوقا عجيباً ، جل الصانع !

وبعد لحظة يسيرة رأينا أمامنا منظراً بديعاً يوشك أن نظنه سرابا فخما لكنه أسفر عن تلك المدينة المقدسة المسماة « قُم » وهى مدينة قائمة فى صحراء الملح امتد فى جوها صف طويل من القباب والمآذن الباسقة لا تكاد تصدقه العين ، تتوسطه قبة تلألأت منها الأضواء وهى قبة « مسجد فاطمة » كسيت بصفائح الذهب الذى سمكه $\frac{1}{8}$ البوصة وأحاطت بها فى جميع الأركان مآذن غطيت جدرانها بالقيشانى النفيس فكان يخيل للرائى أن أمامه شمسين فى الجو .

و « قم » هذه مدينة جميلة ولكنها ليست بالكريمة مع الأغراب ، لذلك قبل أن ندخلها أوقفنا دكتور مصطفى ليوجز بعض النصائح الضرورية للركب . فما قال لنا « أنه يجب علينا أن نكون حريصين وحذرين جدا فى تصرفاتنا مع القوم فى هذه المدينة وبخاصة يجب علينا ألا نظهر ومعنا آلات التصوير الشمسى ، لأن سكان هذه المدينة مسلمون غيورون من مذهب صارم فهم الذين وإن أجازوا دخول الكفار فى مدينتهم لكنهم لا يسمحون لهم بحال من الأحوال أن يقوموا ببعض ما اعتادوا من الأعمال ، فمثلا آلات التصوير الشمسى التى تعمل الصور مبغوضة كل البغض لديهم حتى أننى حين شرعت آخذ بعض الصور من جامع فاطمة ثم من بعض الأماكن فى طهران ، منعت من ذلك وكل ما أكرمونى به هو أنهم سمحوا لى بعمل رسوم تخطيطية لما أريد تصويره . ولم يسمحوا لنا بالاقتراب من الجامع من أية ناحية من

نواحيه ، وقد هددنا أحـد رجال الدين ويسمونه « المُلاَّ » حينما كنا نتريض ونتحدث لحظة قصيرة فوق القنطرة المشرفة على ترعة كانت النساء يغسلن فيها بعض الثياب وهن محجبات بحجب كثيفة ، ومما قد يحدث فتنـة وشغباً كثيراً أن يسرح إنسان بصره ولو بلمحة خاطفة إلى أجزاء المساكن المسماة « بالحريم » حيث يحتجز السادة والأعيان نساءهم فى الغرف ذات النوافذ المحصنة بقضبان الحديدوالتى أسدلت عليها السجف من السجاد السميك .

ويقوم صعدا فى الجوغربى بلدة « قم » أحد الجبال الـكثيرة الشامخة فى صحراء الملح وقد اندق هذا الوتد فى الهضبة وارتفع عنها ٣٠٠٠ قدم ، والهضبة بدورها ارتفعت عن سطح البحر ٣٠٠٠ قدم أخرى ، فترى قمتـه محصورة بين سلسلتين من الجبال عظيمتين ، وإن الهزة الأرضية العنيفة التى حصلت فى نهاية العصر الجيولوجى البليوسينى أى منذ ٦٠٠,٠٠٠ سنة جعدت القشرة الأرضيـة فبرزت منها هذه التتوءات التى تسميها الجبال ، والتى قامت باعتصار التكوينات الملحية كما يبرز معجون الأسنان من أنبوبته .

وقبل أن تصل إلى هذا الوتد الملحى شاهدنا قوافل طويلة جداً من الإبل الغادية والرائحة من وإلى جبل الملح وكنا نمر بجوار إبل محملة فوق سنامها بألواح الملح الـكبيرة فى حجم رخام شواهد القبور ، وكنا نسير فى طريق ضيق عبرنا فيه بطاحا من الملح المجروش — طحنته أسنان العجل وأقدام الدواب — واخترقنا أنهاراً ملؤها الملح إلى أن انتهى بنا السير إلى حظيرة أونزل فى أسفل الجبل مبنية من اللبن لإيواء الدواب وفيها شرفات أو مصاطب ليستريح فيها حداة الإبل . وهنـالك شاهدنا فوق صخرة مرتفعة نائية شبح إنسان — ظهر لنا ضئيل الجثة كأنه قزم — علمنا أنه هو حارس محاجر الملح ، وقد لحظ أننا نتسلق المعبر جاهدين إلى الجبل فى حين أن الجمال بأخفافها الطرية تتسلقه بيسر ظاهر ، فنادى بأعلى صوته رجاله المتبثين فى ثنيات الجبل وتقدم

فى وثبات تجاهنا واستقبلنا بوصف أنه « حارس القلعة البلورية » وحيانا « بسلامات كثيرة » ثم قادنا إلى أخدود بين الجبال ، عاينا فيها تجربة ثقيلة أى ثقل ، دافعتنا الإبل بالمناكب فى عبورها بجوارنا ، فكنا بين رغاء مقلق ونخير مزعج تمتد إلينا أفواهها فاغرة مزبدة كأنها تريد أن تلتقمنا ؛ (وقضمة واحدة من فم الجمل الملوث مؤذية أشد الأذى) فإذا الإبل مالت نحونا بما تحمل من كتل الملح كانت الطامة الكبرى فإنها توشك أن تسحقنا وتقضى على حياتنا . ولا تسل عن فظاعة أنفاسها أو بالحرى تجشؤاتها وإن مجرد تذكرها أو تخيلها يصيبنى بغثيان شديد . فبين لحظة وأخرى كنت أسمع جملا يبعبع ويخرج من فمه صوتا وشكلا شبيها ببالونات لعب الأطفال المنتفخة لكن بالونات الإبل من لحم ويقذف بها الجمل من داخل حلقه ويسميها الناس « القلة » ، مع هدير من خرطومه كهدير المياه الساقطة من شلال أو من (سيفون) .

وإذا هاجت الإبل وغرغرت (بقلها) فمن الحكمة إيواؤها فى حظائر خاصة بها فسيحة الأرجاء ، ولكن أنى لها ذلك فى ثنيات صخور الملح !

وحينما كنا نتسلق الجبل سمعنا جلجلة خيل إلينا أنها آتية من داخل الجبال خليطا بين أصوات الناس وصراخ الحيوان ودوى الحجارة المتدحرجة فكأنها فى جملتها قعقعة معركة حربية ، وكلما اقتربت الصخور منا ظننت أننا قادمون على سراديب فى جوف الجبل ولم نلبث أن انكشف لنا الأمر بدخولنا محجرا عاديا وليس منجما من المناجم كما توهمنا ، أما ما توهمناه ضجيج معركة فلم يكن سوى أصوات تخاطب العمال المنكبين على عملهم طول النهار بدون انقطاع وضجيج الحداة يتفاهمون مع إبلهم .

وقد أشبهت صخور هذا المحجر الرخام فى بياضها ولكن الخفراء لمسوا الصخور ليرونا أنها حقيقة ملح وليست رخاما . وعلى حين فجأة جذبنى الريس من ذراعى وبدأ يدفعنى إلى خارج المحجر (متفوها بعبارات فارسية لم أفهمها) ، وتاقت نفسى للبقاء فى المحجر لحظة أطول مما مكثت ولكنى لاحظتُ بين حداة الابل نشاطاً واضطراباً حين أقبلوا على نحس الإبل المناخة بأقدامهم لأنهاضها ودفعوا بها إلى الخارج ثم ساقوها صعدا على الجبل ، وعندئذ سكتت الأفواه ولم يسمع إلا الاندفاع مع القوج

الصاعد . وسرعان ما فهمت أنهم أحسنوا بى صنعا فلم تمض لحظة حتى دوى الجبل بفرقعة الديناميت يتبعها تدحرج ألواح الملح المتناثر من الجبل على سفحه و إذ بالرجال يهرولون كأنهم شياطين الجبل هاتفين قبلَ الحجر ليتمموا عملية تهشيم الصخور وشق الألواح وتحميلها للابل .

ثم رافقت الخفير فوق الجبل إلى نقطة بارزة أعدت لمراقبة الوادى ومنها أتيح لى أن أرى الوادى وقد فرشت بطاحه الشاسعة بالقشرة الملحية ، وما أشعر إلا والجمالة المرافقون لنا أخذوا يجذبوننى من ساق بأشارات فهمت منها أننا سائرون فى منطقة ثلجية وانحنوا إلى الأرض موهمين أنهم التقطوا بعض الثلج ، وأخذوا يعالجونه فى أيديهم موهمين أنهم يصنعون منه كوراً وشرعوا يتراشقون بها إلى أن أوقفهم الخفير بوقار عن عملهم هذا وعنفهم على هذه الدعابة مع غريب خالى الذهن من ألاعيبهم ، فما كان منهم إلا أن انحنوا بوقار أيضاً وأبدوا أسفهم واعتذارهم لى .

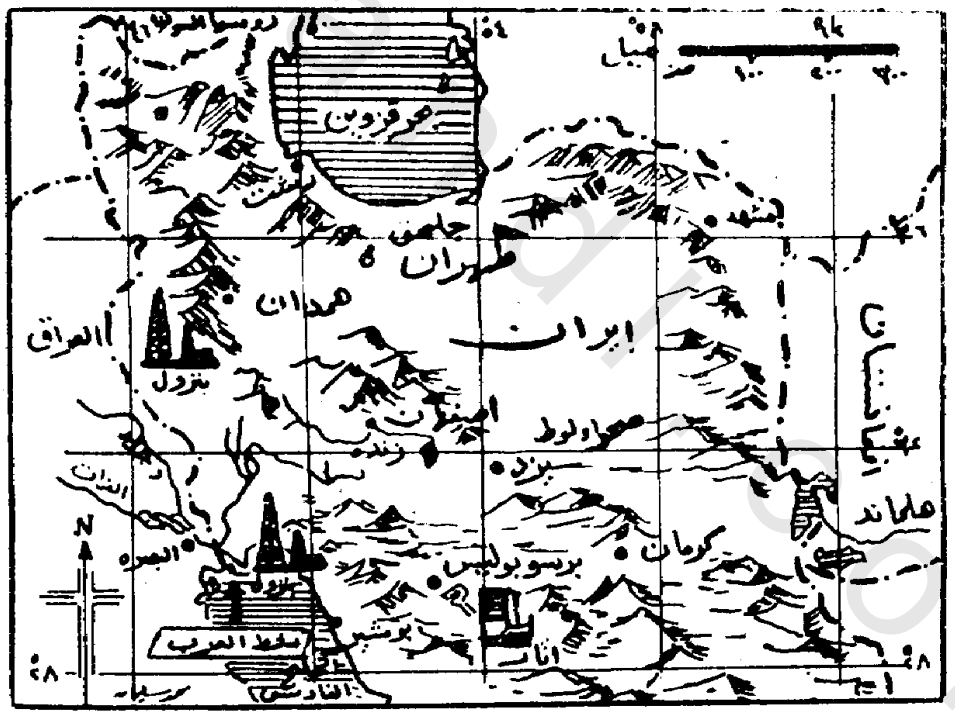

وعند ما خرجنا من ثنيات جبل الملح كانت الشمس منحدرة نحو مغربها ، واتخذنا طريقنا ثانياً فى صحراء الملح وبدأ الليل ينصب سرادقه على الكائنات .

وتغطى صحارى إيران الوسطى نصف مسطح البلاد كلها ، وأكثر من ثلثى

هذه الصحارى مشبعة بالملح لدرجة أنها فى اعتقادى غير قابلة للاستصلاح لكنها من جهة أخرى فى نظرى الثمن الذى تدفعه البلاد لكنوز زيت البترول الموجودة فيها ، و إن الطبقة الطينية التى تحت سطحها متماسكة غير قابلة لنضح السوائل ومن ثم أشبهت غلافا من المشمع حال دون تبخير البترول من باطن الأرض واحتبسه فيها ملايين السنين. ولكنها من جهة أخرى حالت دون تسرب المياه إلى جوف الأرض ووصولها إلى الطبقة الاسفنجية المسامية ، وقد أثبتت عمليات دق الأنابيب الارتوازية إلى أكثر من ٨٠٠٠ قدم عدم اقترابها من أى مجرى للماء العذب .

وترتب على ذلك أن الهضبة نفسها مبطنة بطبقة طينية فهى حوض تنتهى اليه المياه المتسربة من الجبال المطلة عليها من جميع الجهات ، ولكنها فى طريقها تذيب مقادير كبيرة من ملح الصخور و إذا ما تبخرت تحدث طبقات من الملح متجددة وفى ازدياد على الدوام . و بهذه المناسبة أذكر أنهم أخبرونى بأن كلمة « لوط Lout » التى هى اسم صحراء إيران الجنوبيـة هى بعينها كلمة « لوط Lot » الواردة فى التوراة ، و إنها تنحدر من مثل قصة امرأة لوط التى مسخت فانقلبت عموداً من الملح . و إنى أجد فى هذه الحكاية مثالا من الارتباط الوثيق بين أمم الشرق الأوسط من توافق قصصهم الشعبى .

ولو كان للملح قيمة اقتصادية كبرى ، لعدت إيران بفضل ما تحتوى عليه من مقاديره الهائلة فى ثروة لا تدانيها ثروة أخرى ولا ثروة بترولها العظيم .

ذلك لأن جبل الملح الذى زرته فى إيران يمكنه أن يسد حاجة شعب الصين كلها من هذا المعدن الحيوى، وهى من القدم مفتقرة اليه وسوف تبقى محتاجة اليه قرونا عديدة . أما الآن فالأثر الوحيد لهذا المعدن فى البلاد هو أنه يقضى على خصوبة نصف مساحتها .

وفى بعض مناقشاتى مع أساتذة كلية طهران ومع خبراء مشروع السبع السنوات كان من رأيهم الذى لم يخل من بعض الأسباب الوجيهة أن إيران تستطيع الآن وفى

حقبة طويلة من المستقبل ألا تبالى بالصحراء الوسطى فى بلادهم ، اعتمادا منهم على أن فى البلاد مساحات كبيرة من الأراضى القابلة للاصـــلاح الزراعى ، والتى إذا عنوا باصلاحها تصبح الصحارى الوسطى — مع أنها تعدل نصف مساحة البلاد كلها — غير ذات موضوع فى استكفاء البلاد . والوضع الحالى لتوزيع السكان على أقاليم إيران هو أن نصف مجموعهم البالغ اثنى عشر مليونا من النسم يعمرون أزر بيجان الفارسية الواقعة بين حافة بحر قزوين الجنوبية وسفح جبال البورز الشمالى . هذا القطاع الذى ليس إلا جزءاً صغيراً من البلاد غزير الأمطار كثيف النبات يكاد يشبه فى بعض أنحائه الغابات والآجام المدارية . والنصف الآخر من مجموع السكان مبعثر بنسب خفيفة بين السفح الجنـــوبى لجبال الشمال وعلى القطاع الساحلى من سفح الجبال الغربية وفى إقليم سيستان Seiton قريباً من تخوم أفغانستان وفى قليل من الواحات المتباعدة فى داخل الصحراء .

هذا التدرج فى توزيع السكان يتبع كثيراً التدرج الملحوظ فى خريطة توزيع الأمطار فان أغزر نسبة لسقوطها هى فى شمالى البلاد ويلى ذلك فى المناطق الجبلية وليس من المتوقع أى تعديل فى نسب التوزيع هذه إلا بطريق الوسائل الصناعية وإذا نفذت المشاريع الموضوعة كما هى مرسومة على التصميمات فسوف تسد حاجات البلاد أحقابا طوالا من الزمن دون أن يضطر الايرانيون إلى معالجة الصحارى ، وعندى أنهم لن يكونوا فى غناء تام عن محاولة تذليل الصحارى بالرغم من مشاريعهم الحسنة وخططهم المستنيرة المقررة فى مشروع السبع السنوات ، لذلك أرانى غير مقتنع بصواب انصرافهم عنها .

ومن الانصاف أن أقرر أن العلمـاء الايرانيين الذين حدثتهم فى هذه الشئون أصغوا إصغاء كريما للنصيحة يسديها اليهم زائر لم يطلبها منه أحد .

ومما أدهشنى أننى فى إحدى الجلسات أوردت فى حديثى شيئا من كلام عمر الخيام وإذ باسمه لايحرك ساكناً لديهم ولم تزايلنى الدهشة إلا حين أوضح لى أستاذ منهم أنه

لا يكاد أحد فى إيران يعتد بعمر الخيام كشاعر ، ولو أننى نقلت عنه بوصفه فلكيا أو فيلسوفا لكانت استجابتهم لى سريعة وقوية ، فهو بوصفه شاعراً لا يضارع مثلا « الفردوسى » أو الرودكى[1] Rudagi أو فخر الدين السعدى أو الأنصارى إلخ وقد أوضح لى أحد الخريجين الإيرانيين من جامعة كيمبردج بأنه فى الحق إن عمر الخيام — بلغته الفارسية نفسها — ليس شيئا مذكوراً بجانب فيتزجيرالد Fitzgerald الذى فى ترجمة أشعاره إلى الإنجليزية وضعه بأنه شاعر فى مستوى أعلى من حقيقته بكثير . ومع ذلك فقد صممت على النقل عنه أو إن شئت فقل عن فتزجيرالد ما ترجمته :

من الأسى أن السحالى ظلت تدب وتجول ،
والأسد باتت ترتع وتصول ،
فى كيوان طالما اختال بعظمة جامشيد ،
ومن خمره ثمل وترنح ،
وتلك هامة بهرام ذلك البطل الصيود
تطؤها الحمر المستنفرة

فلا يحرك لها ساكنا !!!

تمثلت لهم بهذا الشعر ، قائلا إنه فى نظرى شبيه بغزو الصحارى للأقطار الخصيبة وتساءلت : « ليت شعرى أين قضى كيوان جامشيد ؟ وأين ذهب كيوان بهرام ؟ »

وجامشيد هذا كان ملكا روت عنه الأساطير أنه هو الذى أسس مدينة برسوبوليس Persopolis تلك المدينة الكبيرة ، التى تقع أطلالها شمال مدينة شيراز فى سهل مرتفع معدود بين مناطق الإستصلاح أما بهرام فكان ألمع ذكرا وقد شهدت عظمته قديماً عاصمة إقليمه وهى نيسابور التى هى موطن ميلاد عمر الخيام ، وقد كانت فى القرن الحادى عشر أو بأكثر ضبطا فى القرن التالى له أى فى عهد جنكيزخان واحة آهلة يعمرها نحو مليون ونصف مليون من السكان ، ولكنها الآن لا تسد أود أكثر من ١٥٠٠٠ نسمة ، ولا ريب أن للحروب أثرا بالغاً فى هذا التحول ولكن الإنقلاب معظمه حدث بعدوان الصحارى عليها .

---

(١) الرودكى — هو أول شاعر فارسى عظيم في العهد الاسلامى — قصة الأدب فى العالم الجزء الأول لأحمد أمين (المعرب)

وليكن فى علمنا أن الصحراء لا تقف جامدة فى داخل حدودها على الدوام ، بل هى فى تغير مستمر و إنها تتربص بالسكان فكلما رأت قبضة يدهم على أراضيهم الخصبة متراخية وخطوط دفاعهم عنها ضعيفة هجمت عليهم هجومها المضادوانتزعتها من أيديهم وها هى ذى بعض الواحات والمساحات الخصبة فى صحارى فارس القريبة من تخومها عرضة لأن تغمرها العواصف الملحية والرملية وتعريها المياه والرياح . ويروى التاريخ أنه كان فى إقليم خراسان غابة لا ترى لها من باقية فى هذا الزمان ومثلها فى كرمان وفى إقليم لوط الممتدة جنوبا وشرقا إلى حدود البلوخستان كانت كلها على جانب كبير من الخصوبة حين غزاها الإسكندر الأكبر ولكنها الآن لا يعثر فيها المسافر على مدينة بل ولا على كفر أو محلة ، اللهم إلا الصحراء والصحراء دون سواها ؟

ومع ذلك فالثابت أن الإسكندر قد مون جيشه ومن وادى بامبور Bampur شهرين كاملين ، وغير ذلك الكثير مما يثبت عدوان الصحارى على العمران .

وتبرز المياه بصورة كبيرة من مشاريع السبع سنوات لبعث إيران وإنهاضها ، فمن اعتماداته البالغه ٢٠٠ مليون جنيه الموزعة فيما بين التربية والتعليم والصحة وتنمية الغابات والتعدين وما بينها من شئون مختلفة تجد مشاريع المياه والإصلاح الزراعى حظا وافرا يبلغ ٢٣ ٪ من هذا الإعتماد الكبير .

وأهم ما يغذى صادرات فارس الآن بعد البترول هو المياه ! فإن ٦٦ ٪ من المياه الساقطة على سفوح الجبال تسيل إلى الأقطار المصاقبة لإيران وليس إلى داخل حدودها ولما كانت كل دولة مستقلة حرة فى التصرف فى موارد المياه فى داخل بلادها ففى وسع إيران أن تحول إلى داخل حدودها مقادير عظيمة من المياه التى تسيل الآن إلى البلاد الأخرى الواقعة وراء جبالها ، ولا ريب أن هذا التصرف يثير عادة مشكلات دولية كبيرة ، ومن العجيب أن إيران واقعة الآن فى مشكلة من هذا القبيل أى بخصوص التصرف فى المياه ، ولكنها ليست المياه التى احتجزتها هى بل المياه التى احتجزت عنها فى بلاد الأفغان ، هذا فى حين أن إيران لا « تستورد » من المياه الخارجية إلا مورداً واحدا وهو ذلك الذى يسيل من بلاد الأفغان إلى إقليم سيستان فى إيران ،

وقد حدث منذ سنوات قليلة — لمناسبة موسم جاف — أن حجزت الأفغان هذا المورد عن إيران ببنائها خزانا حال دون وصول المياه إلى إقليم سيستان مما ترتب عليه حينئذ أن مات جوعا على الأقل ٣٠٠ نسمة إيرانية . ومن هذا يتضح أن إيران فى مشروعات إصلاح ريها على بينة من موقفها بوصفها خط تقسيم المياه بين أنهار الأقاليم .

ومشروع السبع السنوات الذى يتزعمه الأمير عبد الرضا أصغر أشقاء الشاه، والذى يدخل فى اختصاص دكتور نفيسى وهو الرجل ذو المقدرات العجيبة من جميع الوجوه و يشرف على تنفيذه جماعة من الخبراء الأجانب معظمهم من الأمريكيين ومن بينهم مستر هنرى أوليفير من الخبراء البريطانيين .

ولا شك أن إحدى العقبات التى قامت فى بادىء الأمر فى سبيل إعداد المشروع وتنفيذه كانت حاجة القوم إلى الخبراء ، والحق أن هذا شىء عجيب فى بلاد عريقة فى الفلسفة والآداب ولكنها ممحلة فى العلوم العملية ، وهذا الأمحال هو الذى حدا بإيران أن تؤجل تنفيذ هذا المشروع الخطير على سبع مراحل سنوية بالرغم مما له من القيمة الإجتماعية والإقتصادية . هذا المشروع الذى معناه فى الحقيقة العود إلى حرث الثروة الإيرانية التى استحالت إلى زيت بترول لارجاعها إلى وضعها الاجتماعى والزراعى . ومبلغ علمنا بالسكان هو أن عددهم الآن يتراوح بين ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ ، ١٥٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمه فى بلاد اتساعها ٦٢٨٠٠٠ ميل و بالرغم من ذلك يعيش سكانها باعتراف الجميع على الكفاف .

و يمكن القول بأنه لا يوجد الآن فى إيران نظام رى بالمعنى الصحيح والمقدر فى نظر واضعى مشروع السبع السنوات هو أن الجهات المعروفة بأنها خصبة ولكنها مقفرة لعدم وجود المياه فيها فى وسعها أن تغذى سبعة أشخاص من كل فدانين اثنين ، لذلك — ومع التسليم بأن الصحارى الوسطى لا أمل فى إصلاحها الآن — يمكننا القول بأن الأراضى القابلة للاصلاح وهى تبلغ نحو خمس مساحة البلاد جميعها تستطيع إذا استصلحت أن تغذى عدة ملايين أخرى فوق السكان الحاليين مما يترتب عليه رفع مستوى معيشة سكان البلاد ، بل ولعله ينهض بها إلى درجة أنها تستطيع أن تمد

العون إلى البلاد المجاورة التى تغلى غليانا شـديدا من ازدحام سكانها وحاجتهم إلى الغذاء ، مثل المشاهد فى بلاد الهند الشبيهة بالقارة من فرط اتساعها .

وقد أعدوا خططا كثيرة ولكن واحدا منها فقط هو الذى اتخذ سبيله إلى النفاذ وهو الذى يراد منه تجميع بعض مياه نهر قارون الأعلى Karoun River وتحويلها إلى منخفض الصحراء المحيط بمدينة أصفهان القديمة الكبيرة . ونهر قارون هذا هو الرافد الذى يجتمع إليه نهرا دجلة والفرات ليكونا فى العراق مجرى شط العرب ولكنه فى منابعه العليا يجرى تقـريباً موازياً لنهر زيانده رد Zaindeh Rud الذى يروى الواحة الكبرى التى تقوم فيها مدينة أصفهان .

والأنهار فى هذه المنابع يفصل بعضها عن بعض سلسلة الجبال ، والمشروع الذى هو فى حيز التنفيذ الآن هو حفر نفق يخترق هذه الجبال لكى يزيد من قوة جريان مياه نهر زياندة رد مما يترتب عليه استصلاح ٦٠,٠٠٠ فدان للزراعة فضلا عن إمداده المصانع فى أصفهان بالقوة اللازمة لحركتها ، وفكرة القيام بهذا المشروع قديمة جدا ترجع إلى ٣٥٠ سنة قبل الآن ، وتتقدم جنباً لجنب مع مشاريع تحسين الرى مشاريع غرس الغابات على الطرق الفسيحة الحديثة ، وقد قررت الحكومة الإيرانية الافادة من خبرة مستر ف . ل . ميتلاند Mr V. L. Maitlnd الخبير البريطانى فى شئون الغابات . ولكن « فيك =Vic » هذا مات فى حادث مؤسف بعد زيارتى إيران بأسابيع قليلة وقد كان بحق واحدا من « رجال ذللوا الصحراء » والكل أجمعوا على استحقاقه هذا اللقب ، ولم يشذ إلا هو نفسه إذ كان يقول إنى لست مطلقا « مذللا للصحراء » وعنده إن الرجال لا يستطيعون أبدا أن يذللوا الصحراء ولكنهم يستطيعون أن يتفاهموا معها باحسان و إن هذا الرجل المسارى العود المتقد نشاطا الذى كان ممكنا أن يقضى غير ملتفت اليه فى قطار من قطارات الضواحى اخترق صحارى بلاد الهند والباكستان والأفغانستان وفارس والعراق وصحارى شمالى أفريقيا على اتساعها ولا يكاد يخلو مشروع من مشاريع إصلاح هذه الصحارى من لمسة من لمساته الشافية .

وكانت رسالته (أو إنجيله) هي رسالة غرس الأشجار و إن أنس لا أنس شكواه لى فى هو يت هول Whitehall — لأنه كان من مستشارى وزارة الخارجية البريطانية — من سوء حكم الناس عليه بأنه كلما تحدث عن أشجار الصحارى تحدث عنها فى حماسة الرجل المجنون . و إن هؤلاء الناس لم يتنبهوا بعد إلى العلاقة بين الأشجار والصحارى ومع ذلك فإن الحقيقة (كما اتضحت للمؤلف شخصيا) هى أن الصحارى ليست إلا غابات منقرضة ! وكانت مهمـــة مستر ميتلاند فى مشروع السبع السنوات هى أن يبعث الغابات إلى حيـاة جديدة وأن يعمل على اكتساء جبال الصحارى الوسطى بالأشجار النضرة .

ثم لوح بيده مشيرا إلى القمم المكسوة ثلجا وقال ما هى إلا بضعة أسابيع حتى تذوى تلك الثلوج وتذوب ، فتتدفق مياهها فى شكل السيول المنهمرة من الجبال إلى الصحراء ! أما إذا غرست الأشجار على سفوح الجبال فانها ستحول دون ذوبان الثلوج السريع فلا يحصل ذلك إلا تدريجا فى بضعـة أشهر ، تتمكن المياه فى خلالها من التسرب إلى باطن الأراضى ، فتغذى الأنهار مما يستطاع معه توزيع المياه على مدى فصول السنة بحسب احتياجات الزراعة .

وهكذا أتيح لنا فى هذه الأيام أن نشهد الشعب الإيرانى الذى قدم لنا فى تاريخه القديم القنوات وسواقى الهواء وطرق الاستزادة من المياه وضبطها نشهدهم يستعيدون تفكيرهم و براعتهم القويمة ليكونوا مرة أخرى سادة المياه فيصبحوا قادرين لا على استكفائهم الذاتى بالحبوب الغذائية بل على تحويل صحاريهم إلى حدائق و بساتين غناء ! و يومئذ لا يتفقون مع شاعرهم الأكبر عمر الخيام حين يقول « هذه البرية هى جنة الخلد الآن ، حتى لو لم يكن فيها سوى رغيف من الخبز ، وقنينـة من نبيذ وديوان من شعر ، وأنت ياعزيزى ! » .

الفصل العاشر

بقى عبور نهر آخر

قرية « بئر سبع » هى من قرى الحدود ولو أن ذلك مخالف للخريطة التى تظهر فيها هذه القرية بأنها مدينة داخلية فى وسط الدولة الحديثة «اسرائيل» ، إنما أطلقت أنا عليها « قرية حدود » لأن من ورائها يقع قطاع « النقب » Negev ذلك القطاع القفر القاحل الذى يحاول المستعمرون الجدد من اليهود أن يذللوه و يعمروه .

لم يسترح أحد كتاب إسرائيل لما وصفتْ به جريدتنا قرية بئر سبع هذه بأنها « غرب هائج يحتل موطناشرقياً » ولكن يخيل إلى أن الناقد لم ير هذه البقعة فى حياته فإنه لو شهدها ، لشهد فيها الغرب بمستحدثاته المختلفة يعج فى هرج مُتسم بمظاهر المخاطرة التى تذكرنا بمخاطرات أولئكم الرواد الأول الذين جاسوا خلال أوريجون وسانتافى [1] ، فعلى المقيم فيها أن يهجر الصالونات والمراقص لأنها ليست بذات موضوع فى هذه القرية التى شُغل بالها بالأهداف والمشاريع التى لاعدد لها ولا حصر ، ثم عليه أن يستبدل بعربات النوم فى القطرات ، عربات جيب وعربات بضاعة مكشوفة . وحيثما سار يصادف دوريات بقيادة ضباط تحمى الطرق فى عربات مصفحة . ولا يشهد

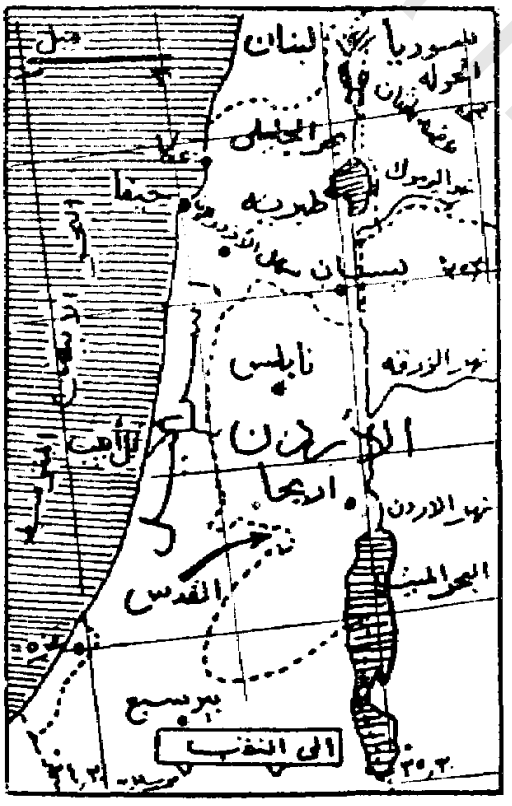

(١) ولايتان جبليتان فى شمالى غربى أمريكا الشمالية (المعرب)

إلا هؤلاء الرواد وأطفالهم — وهم من اليهود المحشودين من بلاد العالم المختلفة — جاءوا ليحددوا مطالبهم ويثبتوا معالمها » فيجد المسافر فى ركن من القرية ما يشبه « مركز القائد العام » وقد علقت على جدران مكتبه خرائط « النقب » عينت عليها مواطن المستعمرات التى لم تولد بعد ؟

وإذا ما قصد إنسان الخروج إلى جنوبى « بئر سبع » يحتم الجيش عليه أن يتسلح ببندقية أو مسدس ويأمره « أن يطلقه عند أية ريبة » ولما كنت إنساناً مسالماً طول حياتى « ولم أطلقه عند أول ريبة » اعتذرت عن عمل ذلك ، فكان ردهم على « أنى إذاً المسئول عن سلامتى وإن حياتى بين يدى » لأننى سوف أخترق « أرضا شقية » تبتدر من تقابله باطلاق النار عليه ولا تستوضحه اسمه أو تستمع لأى بيان منه .

ولم تكن نصيحتهم لى مجرد مظاهرة أو رواية تمثيلية ، لأننا كنا قادمين على التوغل فى وديان الصحراء التى هى الطريق المفضل الذى يسلكه المسافرون خلسة بدون جوازات وبخاصة رجال العصابات المسلحة بقصد إدخال البضائع المهربة فيما بين آسيا وأفريقيا تحت ستار الادعاء الشائع الآن وهو الفرار من متاعب « النزاع العربى اليهودى » ، وقد اعتاد هؤلاء المعتدون أن يعتبروا من يعترض سبيلهم من المسافرين أو المستعمرين قنصا مباحا لهم ، كما اعتادوا أن يهجموا على المستعمرات المنعزلة ويقتلوا سكانها ويسلبوا أرزاقها .

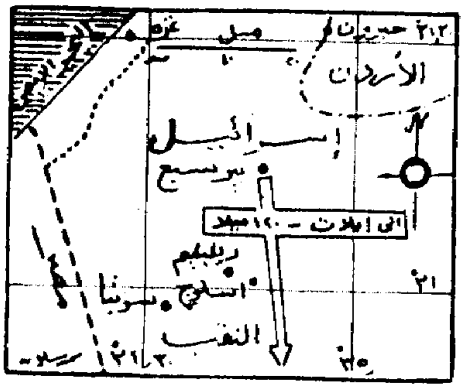

ويحيط بقرية بئر سبع نحو أربعين من المستعمرات اليهودية ومعظمها حديث النشئة ، يقوم بزراعتها شبان وشابات من منكوبى الحرب يعملون والبنادق فى متناول أيديهم ، وما عملهم إلا فلاحة البقع التى انتزعوها من قبضة الصحراء الحديدية ، وبينا هم دائبون على تأسيس مساكنهم ، يمدون أنابيب المياه اليها ،

ويمتطون جرارات المحاريث الآلية ، لا يفترون طرفة عين عن مراقبة الأفق خشية أن ينقض عليهم منه الركبان فى قوافل الابل .

فلم يسعنا إلا التسلح بالبنادق والذخيرة ورتبناها فى الخزانة الخلفية من عربة « جيب » ثم خرجنا لنجوب قطاع النقب الذى يمتد من جنوبى بير سبع إلى خليج العقبة أى إلى مسافة ١٢٠ ميلا ، وكان بعض الطريق معبدا ، حوله اليهود بغرامهم بالشجر إلى شارع متسع محفوف بالشجر مما يطلق عليه « أفينيو Avenue » وكان منظر الرجال منبثين هنا وهناك فى هذه البرية يسقون الأشجار من عربات المياه عجيباً ومن أبدع المناظر حقاً .

وإن هذه العملية هى من أول واجبات كل مستعمرة ، فهى المسئولة عن نقل المياه فى العربات إلى المسافة المعينة لها فى نطاقها لتسقى فسائل الشجيرات حتى يشتد عودها وتتأصل جذورها وتستقى غذاءها بنفسها من باطن الأرض . وفى الحق أنه لأيمان قوى أن تجد جيلا من الناس يعانى ما يعانى فى تدبير أسباب معيشته ومع ذلك يعنى هذه العناية بغرس الشجر الذى سوف لا تنتفع به إلا الأجيال المقبلة .

وهكذا بدأت الحياة تدب فى موات الصحارى فى محيطات هذه المستعمرات بالرغم من أن المطر يكاد يكون منعدما فى مناطقها ولكن القوم يتحدون هذا المناخ ويغرسون كل ما يعثرون عليه من تربة صالحة للزراعة . وإن أنس لا أنس ما جربته بنفسى فى مستعمرة ريفيفيم Revivim وهى من أقصى المستعمرات جنوباً ، حينما خضت فى زراعة برسيم ارتفع إلى ركبتى ، وعلمت أنهم يحشون هذا البرسيم ثلاث حشات فى السنة الواحدة . ومنذ سنوات قليلة كانت هذه البقعة فلاة عديمة النفع وزادتها سوءا على سوء المعارك الحربية التى نشبت فيها وقد سمعت فى هذه المنطقة أيضاً — ما لم أسمعه فى صحراء غيرها — وهو الطيور تغرد كما شاهدت الفراش المرقش بالألوان البديعة يحوم حول أزهار استنبتها الانسان ، فتساءلت كيف وصلت تلك الفراش إلى هذه البقاع ؟ وعهدي بفراش الصحارى رملى اللون ، كأنه بتزيا خصيصاً هكذا لمخادعة العدو أو

لكى يستتر عنه باندماجه فى ألوان بيئته ، وسرعان ما فطنت إلى أن هذه المخلوقات — البعيدة كل البعد عن أى زراعة بستانية — كيفت نفسها بنفسها وتزينت بزى لأزهار التى هي بيئتها الجديدة . وذاك هو الهواء طابت أنفاسه أيضاً بالأريج ، وأسراب النحل البرى الأسود متجمعة حول مأدبة الزهر الطارئة عليها ، بعدأن كانت قبل هذا العهد تجوب القفار تتلمس ما يقوم بأودها و يحفظ حياتها .

والانسان نفسه أصبح يجد فى هذه البرية لبنا وعسلا مع أنها ليست بأرض المعاد the Promised Land بل هى برية « صين » Zin ذاتها لم تتغير ، وثمت سلالات جيدة من البقر المهدى من أمريكا لتحل محل المواشى التى هلكت عند ضرب المستعمرة بالقنابل فى الحرب الأخيرة ، انتشرت هذه الأبقار ترعى البرسيم وغيره من الحشائش التى توطنت فى هذه البقعة من الصحراء ، « حقا إذا برزت إرادة الانسان استجابت لها الطبيعة بالعطاء » . وأعجب ما رأيت تبيانا لهذا المثل ، هو محصول البرسيم البرى العجيب فى هذه المنطقة الذى يحار المرء من أين أتى ؟ لاريب أن التربة اختزنته الحين مجىء الماء ، وها هو ذا قد أتى ! و « ريفيفيم Revivim » كلمة عبرية معناها « قطرات الماء » والواقع أننا إذا نظرنا إلى سقوط المطر فى هذا القطاع فلن يزيد معنى الكلمة عن « القطرات » ، ولكن الأمر ليس موقوفا على المطر بل إن هناك قريبا من المنطقة وادى « أسلوج » Aslung وفيه مسيل ينحدر من التلال ، ليس من المبالغة أن يوصف سيله العرم إذا تحطمت عليه عاصفة مطيرة بأنه كالجدار المتحرك ربما يبلغ ارتفاعه ١٨ قدما ، وقد أخبرت بأنه قبيل زيارتى لهم هجم عليهم هذا السيل فأحدث دمارا كثيرا ذلك لأن المستعمرين كانوا قد شادوا خزانا بالأسمنت المسلح فى طريق السيل مر فى طريقه الذى كان فيما مضى ميدان القتال فاكتسح معه لغما تفجر فى الخزان وحطمه ، ومع ذلك فإنه لم يحطم عزيمة المستعمرين .

فقد أنشأوا مجموعة من قناطر التحويل ، التى توزع المياه إلى قنوات طول الواحدة منها نحو ١٠٠٠ ياردة ، واستطاعوا بذلك أن يوصلوا المياه إلى الحقول و إلى خزان يحتجز نحو ٨٠٠٠٠ متر مكعب من المياه وما هذا الخزان إلا جهازا مؤقتا لأن

لديهم طريقة بارعة للزراعة تلك هى أن يجعلوا السيل يعبر فى نزوله حقولا معلقة فوق بعضها البعض — تعليقا محدثا بالآلات ، و إذا بهذه الحقول المدرجة أو المعلقة كأنها مشارف قريبة الغور فترى المياه فى هذه المدرجات تعبر الحقل الأعلى ولا تمكث طويلا حتى تنتقل منه إلى الأدنى منه ثم إلى الأدنى فالأدنى إلى النهاية ، وحينئذ يتابعه المستعمرون يشقون كل حقل فور غمره بالمياه ليوصلوها إلى الطبقة التى تحت سطح الأرض ، و يتلو ذلك الزراعة التى لا تتعدى الجزء المغمور بمياه السيل العابرة ، ولا يدخلون فى حسابهم الاعتماد على سيل آخر ، فان جاء هـذا فزيادة الخير خيران ! وتوجد بقرب ريفيفيم بئر على عمق ٣٠٠ قدم لكن مياهها ملحة ، ومع ذلك يتغلبون على ملوحتها بتخفيفها فى داخل خزان مياه السيل ، ثم يصرفونها بقنوات إلى مزارع الزيتون والموالح .

وقد كانت ريفيفيم فى أثناء حرب العرب واليهود معزولة كل العزل عن أمهات القرى الاسرائية ، ولكنها صمدت لمحاصريها من قوة الجيش المصرى ولم تستسلم قط واضطرت حاميتها فى أثناء الحصار أن تحفر الخنادق ففيما كانوا يحفرون مخبأ عثروا على مخبأ مهيأ من القدم ، وهو كهف قائم على عمد ، ولعله كان صهريج ماء متخلف عن العصر البيزنطى .

أليس عجباً أن قومين من المستعمرين ، أحدهما قضى فى فجر التاريخ والآخر بزغ فى أصيله ، ولكنهما يجتمعان على اختيار المكان الواحد ؟ ثم ماذا ؟ على مقربة من هذه البقعة أطلال سوبتا Subelta تلك المدينة البيزنطية الدراسة ؛ التى لا تصل اليها إلا على هدى البوصلة . (لعدم المعالم فى طريقها) فلما تأهبنا إلى الذهاب اليها شدد علينا مستر ا . جولد سلاجر Mr. Goldslager مدير صيانة التربة الزراعية بدولة اسرائيل وقد كان مندوباً لمرافقتنا أن نلبس منطقة الذخيرة ونكون على الدوام « متأهبين » لرد عادية المعتدين لأننا سوف نجوب برية خطيرة والحق أننى كنت فى خلال هذه الرحلة التى خضخضت أجسامنا لوعورة الطريق فيها ، جد فزع من حمل منطقة الذخيرة أكثر من توقعى عادية المعتدين .

ولما وصلنا إلى أطلال سوبتا إذ بها لم يتم الكشف عنها بعد ، ومع ذلك فما كشف منها يدل دلالة كافية على أنها كانت فى عصرها مدينة زاخرة عامرة ، والخطوط العامة للمنطقة المجاورة لها تدل على أنها كانت مدينة متسعة آهلة بالسكان . فمثلا يوجد بها بقايا ما لا يقل عن ثلاث كنائس فسيحة الأرجاء رائعة المظهر مما يدل على أن البقعة لم تكن مجرد «مربط إبل مريح» أو محطة استراحة المسافرين فى الصحراء ، وإن البيوت الخلوية التى جددت عمارتها لتدل على ثقافة عالية ورخاء كثير فى بقعة لا خير فيها لعابر سبيل أو على الأقل يلوح له ذلك لأول نظرة اليها . فمثلا يرى المتأمل فى إحدى كنائسها حوض حمام التعميد ، يتسع لغمس الجسم كله ، مما يحمل دلالة خاصة فى بقعة لا يزيد معدل سقوط الأمطار فيها على أربع بوصات فى السنة . مما حدا ببعض العلماء أن يظنوا « أن مناخ هذا الأقليم انقلب انقلاباً كلياً فى مدى الألفى سنة الماضية ، وبخاصة حدث التغيير الكبير فى معدل سقوط المطر » ولكن العراء المحيط بهذه البقعة يفند هذا الظن وقد شاهدنا هنا ما أصبحت أعتبره المظهر الشائع الآن لحابس المياه القديمة — فالرمال طمرت المصاطب القديمة وردمت الآبار والأحواض — مع وضوح الندى العجيب على الكثبان الرملية .

وظهر لى أن ما جنيناه من فوائد مشاهدة هذه البقعة يستحق ما عانيناه من وعثاء السفر فى سبيل الوصول اليها . فليس الأمر مقصوراً على مشاهدة أكداس بديعة من الحصى بل لما لهذه المشاهدة من معان دفينة وعبر كبيرة . فقد رشقت المنطقة المحيطة بهذه القرية العتيقة بالحصى الشبيه « بالبثرات » أو الطفح الجلدى «المنتظم» ، وإنى حين أقول « المنتظم » أعنى تلك الكثبان الرملية المصطفة صفوفاً هندسية والتى فى بعض الأحيان تعلو وتمتد كأنها الجسور . ولقد يحسبها الرائى لأول وهلة أنها آثار المزارعين القدماء المعتنين بعملهم عنوا عناية تامة فى تنقية مزارعهم من حين إلى آخر من الحصا والمدر وتكديسها فى هذه الصورة ، ولكن الحقيقة ليست كذلك . فعندما تأهبنا لتعقب هذه الكثبان فى التلال ، عاد مرافقنا ينبهنا إلى التأهب لصد الأعداء ، الذين من عادتهم الترصد فى ثنايا التلال ، ومفاجأة عابرى السبيل بها .

هذه الكثبان يبلغ ارتفاع الواحد منها متراً واحداً وقد غمرها التراب الآن . أما فى الماضى فأكداس الحصى والمدر كان يزاح عنها التراب ، وكانت مقامة هناك لتتصيد الندى ، فكأنها تدبير فنى للافادة من الضدين الحرارة والبرودة الشديدين ، فالحصى إذا اشتد بردها فى الفجر كانت تكثف الندى وتحيله إلى قطرات ماء تتسرب فى التربة إلى الطبقة الخصبة أسفل من سطح الأرض ، ، لذلك اعتادوا أن يزرعوا فى هذه الكثبان أشجار التين والزيتون بل لعلهم زرعوا أشجاراً أضخم من هذين النوعين . ومهما يكن من أمر فكانت هذه الوسيلة مستخدمة لتحويل الصحراء إلى آجام وأحراش وأدغال .

والمظنون أن هذه الكثبان لا تقف فى التاريخ عند نهاية البيزانطيين بل إلى ما هو أبعد من ذلك العهد فلربما ترجع إلى ٣٠٠٠ سنة قبل عصرنا الحاضر ومما يعدلها بعصر النبطيين الذين ألمعنا اليهم فى فصل الكلام على شبه جزيرة سيناء . إذ من المسلم به أن أمة استطاعت حضارتها أن تنحت من الجبال بيوتاً فارهين — مثلما هو باق فى مدينة بطرة Petro لم يستعص عليها ابتكار مثل هذه التدابير العبقرية البادية فى الكثبان الرملية .

ولقد بذل علماء إسرائيل عناية خاصة بدراسة « الندى » وعندهم إن التوراة هو نعم المرشد للفوائد العلمية — (وإن كان ليس معصوماً عن الخطأ) ويجدون الندى ذا حظ عظيم فيه . فهم يفهمون أن « المن » ذو صلة وثيقة بالندى ، فحشرة المن الصغيرة التى تنمو على شجر الطرفاء واسمها Mannafere aphis قوام حياتها على الندى كما هو على أوراق الطرفاء سواء بسواء . وأنها تطرح « المن » فى الفجر الذى هو وقت تكثيف الندى . وأحد خبرائهم الكبار دكتور س . دفديفاندى Dr. S. Duvidevandi الأستاذ فى مدرسة الزراعة فى باردس حنا "Pardes Hanna" (ومعناها أجمة حنا من أشجار البرتقال) ، قد ضبط مقاييس الندى "dew meters"

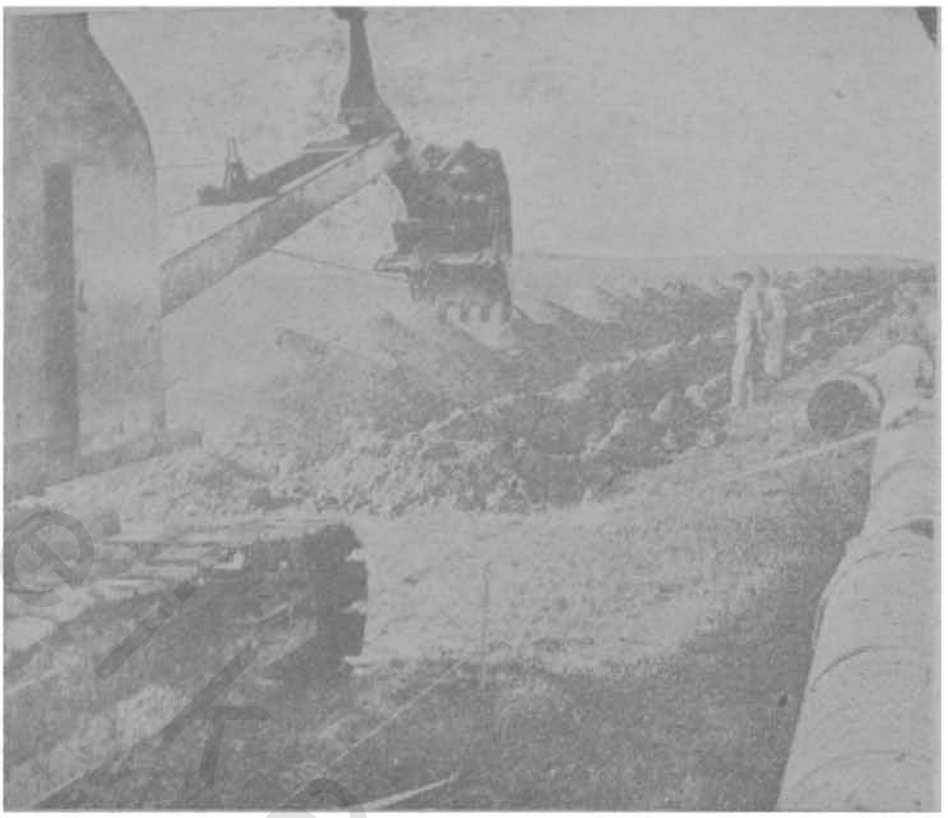

أنابيب المياه تجرى فى الصحراء وتنقل مئات الأميال تشق عباب أرض العهد القديم (التوراة)

البرسيم يعلو إلى ركبة الانسان ويحش ثلاث مرات في السنة .

الرطوبة الحية : كيف تجد الحشائش والحلاس قطرات الماء التي تحيا بها فى كثبان الرمل ؟
ها هو ذا بيير Pierre عالم البيئة الحيوانية يحاول أن يعثر على حشرات ليستعين بها على حل هذا اللغز .

لعله يجد الجواب فى قطرات الندى التى تتكثف على الكثبان الرملية . وقد استطاع الناس فى العصور الوسطى منذ ٣٠٠٠ سنة تقريبا أن يقتنصوا الندى على أكداس من الحصى
(يشاهد المؤلف مرتديا قلنسوة الصحراء) .

obeikandl.com

التى بواسطتها يمكن القياس الدقيق لمقدار الندى السابح فى الجو ، وبذلك صار فى الامكان دراسة ظاهرة الندى دراسة دقيقة . وقد وصل فى دراسته إلى نتائج عجيبة . من ذلك أن المشهور بين الناس أن رياح الخماسين تلك الرياح الحارة اللافحة هى رياح « يابسة » ومع ذلك فإن مقياسه أثبت أن هذه الرياح « اليابسة » تحتوى على رطوبة معادلة لما يوجد فى الجو عادة بعد سقوط المطر . وأن أقوى تركيز لهذه الرطوبة هو على ارتفاع متر من سطح الأرض أى على ارتفاع الكثبان الرملية . ومن ذلك يتضح لك أن مبلغ ما يخبرنا به العلماء العصريون متصفاً بالدقة والبراعة ليس إلا مقرراً ومؤكداً لما عرفه الأجداد فى قديم الزمان .

و إن الرحلة فى غمار أرض النقب لتعلمنا الكثير عن طبيعة الصحراء ومظاهرها المختلفة وعما يمكن الافادة منها إذا تذرع مذللوها بالعلم والحلم والصبر ، و إذا حاولوا زراعة البرية كما يفعل أولئك المستعمرون ، ومع ذلك فقد تاقت نفسى لأن ألم إلمامة أوسع بما « أضاف النقب للعلم » لذلك حلقت فى جوه فى طائرة نقل البضائع بجوار شحنة أسمنت .

والحق أن مشاهدة النقب من ارتفاع ٥٠٠٠ قدم ليعطى الحق للقائلين بالانصراف عن الصحراء لأنها « لارجاء فيها » . فإنه لا يرى إلا وهادا ونجودا وامتدادات شاسعة من الأراضى التى عرتها عوامل الرياح والمياه وسهولا فسيحة غطتها الرمال ووديانا جافة وقلما يقع بصره فى هذا العالم الفسيح على أى نوع من أنواع النبات فكان يتشجع على محاولة كشف أنواع غيره وأنها مكونة من جانبها الشرقى فيما بين جنوبى البحر الميت وخليج العقبة من ذلك الوادى الصحراوى المسمى وادى العرابة ومن الغرب من سلاسل الجبال الجيرية ذات القمم المستوية وهى جبال التيه ومن شرقيها يقع ذلك الفراغ المنخفض الثائر بين التلال تحلق عليه عند آخر إمتداد النظر ثلاث قمم شاهقة بادية للعيان . وهذا هو وادى إيتام Wodhi Ithan الذى يجرى مع سلسلة جبال العرابة الشرقية وهو الذى سلكته بنو إسرائيل فى خروجهم إلى برية مواب

Moab الواقعة فى شرقى نهر الأردن ومن خلف ذلك كله جبل هور [1] Mont Hor وفى قاعدته مدينة بطرة القديمة ، ومن ذلك يتضح أن وادى العرابة هو الفاصل بين دولة إسرائيل وبين مملكة الأردن ولكن الجبال ذات الألوان البديعة واقعة فى الجانب الأردنى وقد بلغ من جمالها أنك تحسبها فى الظهيرة مبرقشة كأنها تحت أشعة الشمس عند غروبها .

وأخيراً هبطت بنا الطائرة بقرب بلدة إيلات وهى نقطة عسكرية يهودية على الحدود عند رأس خليج العقبة ، و إليها ينتهى مثلث النقب الإسرائيلى فى نقطة ضيقة تبعد من جهتها الشرقية نحو أربعة أميال فقط عن ميناء العقبة الأردنى ومن جهة الغرب نحو خمسة أميال عن بلدة طابة المصرية ، ومن الأمام على الضفة الشرقية من الخليج يقع الحجاز من أقطار المملكة العربية السعودية . وهكذا يشهد المتأمل أربع دول لكل منها موضع قدم واحد على قمة الخليج الضيقة .

أما اليهود فلم يكتفوا بأن يتخذوا من موضع قدمهم نقطة عسكرية فقط بل خلقوا منه متنزهاً بحرياً ، وقد رأيتهم يغرسون خارج الكثبان بستان نزهة يجتذبون به أنظار الزائرين و يبنون بالطين فندقا فى أكواخ جبلية مريحة ، وعندما تسلموا هذه النقطة كانوا يجلبون إليها الماء العذب من أقرب نقطه عسكرية لقرية بئر سبع ، ولم يلبثوا أن أقبلوا بجهد جهيد ينقبون عن الآبار الإرتوازية ، ولكنها لم تكن تعطيهم إلا مياها ملحة ، كما عثروا على آبار قديمة ولكنها تحولت مع الزمن إلى آبار ملحة أيضاً ولكنهم نجحوا أخيراً بدق بئر حلوة على مسافة عشرة أميال من هذه الرأس ، و يحاولون الآن مد مياهها إلى هذه المستعمرة ، ولكى يفيدوا أكثر الفائدة من الخليج جلبوا من وراء النقب قوارب صيد وما اضطرهم إلى ذلك إلا قفل قناة السويس أمام الملاحة إليهم و بذلك لم يكن بينهم و بين فلسطين الواقعة على البحر الأبيض المتوسط من طريق بحرى سوى الطريق الطويل حول قارة أفريقيا كلها .

---

(١) هكذا كتب فى سفر العدد ص ٢٣ . (المعرب)

وقطاع النقب هو الحافز لهم إسرائيل ، و إنه ليتحداها لإصلاحه على الدوام لأنه نصف مساحة دولتها ، فى حين أنه لم يكن له وجود قط على خرائط فلسطين التقليدية التى امتدت من عهد التوراة بين دان[1] و بئر سبع وقد أكد لى أساتذة العلوم من إسرائيل أنه لا بد سيأتى اليوم الذى يكون قطاع النقب زاخرا بالزراعة مثل القطاعات الشمالية التى لم تكن حين وفد إليها المستعمرون الصهيونيون الأول منذ ٨٠ سنة أحسن حالا من النقب الآن بل كانت مستنقعات ومباءات لمكروب الملاريا .

وسوف يشغل النقب جهود كل العلماء الذين تحشدهم إسرائيل لهذا الغرض ولكنهم لا يقدمون على مواجهة المشكلات إلا بأفكار ثاقبة وعقول متخيلة مبتكرة وإنك لتجد فى معهد ويزمان فى مستعمرة ريهوفوت Rehovot الكيمائيين والطبيعيين وخبراء التربة الزراعية ، عكفوا جميعاً على التجارب بقصد الوصول إلى أحدث الحلول والوسائل فقد شهدت مثلا جهاز تكثيف شمسى ينتج كل يوم ٤٠ لترا من المياه العذبة النقية يبخرها ويكثفها من ماء مشبع بالملح ، و إنه مركب من دولاب زجاجى فى شكل قريب من المنشور موجه إلى الشمس وهى فى أقوى أو أحر أوقاتها فى النهار والمهم فيه هو زاوية الضلع المائل فهى التى تجمع وتركز حرارة الشمس على المياه فتجعلها تتبخر ثم تتكثف على القائم الزجاجى الرأسى فى خلف الجهاز ومن ثم تتجمع القطرات وتتقطر فى قنوات .

وأما مشكلة المستعمرين الذين كان من حظهم المياه الملحة أو التربة المشبعة بالملح فسوف يوكل حلها إلى الجهاز الذى شهدته مشتغلا فى المعهد وهو جهاز يقوم على نظرية تبادل الأيونات = ion-echanging plant. وهو مركب من أنابيب محشوة بصموغ خاصة من تركيب رئيس الدولة نفسه : Dr. Weizmann ذى الشهرة

---

(١) «دان» هى أقصى قرية فى خريطة فلسطين من الشمال على خط عرض مدينة صور اللبنانية وليست ظاهرة على معظم الخرائط (المعرب)

العالمية فى علم الكيمياء ، و بواسطة هذا الجهاز يفصل الماء المالح عما يحتوى من معدن الصوديوم فى إحدى الأنابيب ، ثم فى أنبوبة أخرى يزال منه الحمض ، و يستطيع هذا الجهاز أن يولد ماء عذبا مقداره عشر طونولات يوميا مع إمكان تقليل محتوياته من الماء المالح إلى أى مقدار لازم فقط ورأيهم على وشك أن يرسلوا هذا الجهاز إلى إحدى المستعمرات ، وإنه لجهاز من البساطة والوضوح حتى لا يخشى أن يجهل إدارته شخص ما .

و يفوق هذه المخترعات فى حسن التصور والابتكار استخدامهم للنيلون nylon و إذا ذهب بنا الظن إلى ذلك النيلون الذى تصنع منه الجوارب النفيسة لكان استخدامه فى حل المشكلات عقيما ومستحيلا .

لكن الحقيقة التى يفكر فيها العلماء فى إسرائيل تخالف ذلك كل المخالفة ، فإنهم الآن يجرون تجارب الغرض منها إمكان استنباط الماء العذب من الماء المالح أو من التربة المشبعة بالماء الملح بمسطحات من النيلون ، ولهم فى هذه التجارب عده طرق على أساس أن النيلون تنفذ منه الأشعة الشمسية مع بقاء سطحه الأعلى باردا غير متأثر بالحرارة ، و يترتب على ذلك أن الماء (العذب) يتبخر من مسام النيلون ثم يتكثف على السطح الآخر البارد ، وتطبيقا لهذه النظرية إذا بسط النيلون على ماء ملح جار أو على تربة رطبة حتى لو كانت ملحا أجاجا ، أمكن تبخير الماء العذب ثم اقتناصه بالتكثيف على الجانب الآخر . وثمت تطبيق آخر وهو أن تغطى المزارع بقنوات من النيلون ، فتتجمع المياه العذبة المتبخرة من النباتات فى القنوات وتسيل فيها إلى حوض مجمع لها وكذلك فى الامكان ملء هذه القنوات بتربة خصبة جيدة وحينئذ يمكن استنبات محاصيل زراعية على نمط أحواض الأنبات لكن بنسب كبيرة .

وللمادة النيلون خاصية أخرى يريدون أن يستفيدوا منها ، لأن من أكبر المشكلات التى تواجه سكان الصحراء هى تبخر المياه العذبة حينما تكون فى الخزانات المكشوفة (مثال ذلك مياه خزان رفيقيم يفقد بوصتين من ارتفاع مياهه ، (.... وهذا مقدار كبير ونفيس إذا ضرب فى مسطح المياه) . لذلك يفكر أساتذة العلوم أن يغطوا سطح هذا الخزان

بشرائح من النيلون ، و إنهم يقررون أن شرائح النيلون — على خلاف مسطحاته — صفيقة لا ينفذ منها الضوء ، لأنها تصده — وفى حالتنا هذه تصد الحرارة لأن سطح النيـــلون الآخر الشفاف ينفذ منه كلاهما الضوء والحرارة ، و بناء على هذه النظرية يرى أولئك العلماء أنه إذا أمكن تغطية سطوح الخزانات بشرائح النيلون (وهى شبيهة بشرائح الصابون) تطفو على وجه الماء وتعلو وتهبط مع تماوج مياهه وفى حركاتها هذه تصد الأشعة الشمسية و بذلك تحول دون تبخر المياه المغطاة من تحتها .

ولا ريب أن هذا ممكن عمليا وبيسر على أولئك العلماء الذين استطاعوا بوسائل فى منتهى المهارة والفطنة أن يستنبطوا المعادن من مياه البحر الميت ، فهنالك فى طرفه الضحضاح ، حيث تغطى المياه ما كانتا تسميان فى وقت من الأوقات بلدتى : سدوم وعمورة Sodom and Gomarrah ، توجد قدور أو « غـلايات » الملح . حيث تتبخر المياه بحرارة الشمس تاركة المعادن الذائبة فيها فى صورة قشرة على الأرض . وقد اعتزم هؤلاء العلماء أن يمدوا الشمس بيد مساعدة ! لكى يضاعفوا عمليه التبخير وطريقتهم لذلك أن يضاعفوا من استخدام أشعة الشمس نفسها ، ذلك بما هو معلوم من أن بعض الألوان أكثر امتصاصاً لحرارة الشمس من بعضها الآخر . مثال ذلك اللون الأسود الذى يمتص أضعاف ما يمتصه لون غيره من الحرارة ، لذلك جال فى فكرهم أنهم لو استطاعوا صبغ مياه البحر باللون الأسود لضاعفوا من تأثر الميـاه بحرارة الشمس . ولكن الفكرة لم تكن عملية مهما حدا بالدكتور بلوخ Dr. Bloch الكيمائى الممتاز إلى ابتكار مادة خضراء اللون مقاربة — وليست معادلة تماما — للون الأسود فى قوة امتصاص وتوصيل الحرارة ، وتطبيقا لهذه التجربة أطلقوا على المياه الملحة مياها عذبة ملونة بالمادة الخضراء ولما كانت مياه البحر الميت أكثر كثافة من المياه العذبة المنطلقة على وجهها فهذا يدعو إلى بقاء المياه العذبة طافية على السطح لا تمتزج فى مياه البحر فى حين أن المياه الملونة الطافية توصل مقدارا أزيد من المعتاد من حرارة الشمس ثم خطوا خطوة أبعد من هذه ! فإنهم استنبطوا فائدة فرعية من هذه التجربة ، ومن الفرق

بين درجتي حرارة سطح الماء وقاعدته وهي اختـــراع آلة حرارية لأغراض ميكانيكية خاصة .

ولو أن سكان إسرائيل حصلوا على مادة النيلون لاستخدامها في الأغراض التي سلفت ، بالطريقة التي نحصل بها نحن حينما نشتريها من الأسواق ، لكان ذلك باهظ الثمن لدرجة معجزة ، لذلك عمدوا إلى الحصول على النيلون من صحرائهم نفسها .

ذلك أن أحد النباتات الشائعة في الصحراء ومن أصبر النباتات على العيش فيها ، هو نبات « الخروع » ولا ريب أن أولئك الذين لا يعرفون عن هذا النبات إلا أنه دواء ولربما عافته نفوسهم بهذه الصفة أيضاً ، سيدهشون كل الدهشة لوجود علاقات بينه و بين مادة النيلون . ولكن علماء إسرائيل في معهد ويزمان يعلمون الكثير عن « التخمر » fermentation ويمتاز رئيسهم بشهرة عالمية فيه . والمعلوم أن التخمر معناه استخدام الكائنات الحية الطبيعية من أمثال البكتريا والفطر لمعالجة المواد النباتية وتحليلها إلى عناصرها الكيمائية . وقد اتضح لهم أنهم بتخمير نبات « الخروع » يمكن الحصول على عناصر « اللدائن » أو « البلاستيك » ، التي من بينها النيلون . وهو المادة التي لا يحصلون عليها في الوقت الحاضر إلا من الفحم الحجري أو من البترول ، ولكن يجب ألا يغيب عن ذهننا أن الفحم والبترول كليهما (نبات مثل نبات الخروع) اختزنته الطبيعة وسحقته وحولته على مر ملايين السنين إلى صورته الحالية . لذلك يفكر علماء إسرائيل في أن يستخدموا عملية التخمير في تعجيل عملية التحويل — التي قامت بها الطبيعة في ملايين السنين — بقصد الوصول إلى محصول سنوي من النيلون والبلاستيك من نبات الخروع أي من الصحراء نفسها ، وإنهم بمشروعهم يقصدون أن يجعلوا من الصحراء أداة طيعة في يد الصناعة الحديثة .

وإن دكتور إرنست دافيد برجمان Dr. Ernest David Bergeman مدير معهد ويزمان يعتقد أن نبات الخروع سوف يصبح له شأن خطير في اقتصاديات إسرائيل لا يقل عن شأن الموالح : البرتقال والليمون . ولا ريب في أن هذا من الأهمية بمكان عظيم

بالنسبة لبلد مثل إسرائيل محرومة من المعادن من جهة ونصفها صحراء من جهة أخرى .

و إن تجارب اليهود منذ أن عادوا إلى فلسطين منذ ٨٠ سنة ، و بحوثهم الحالية كل هذه المحاولات أقنعتهم بأنه فى إمكانهم أن يحصلوا من الصحراء على محاصيل قيمة

ولقد شاهدت مثلا رائعاً فى معهد و يزمان ترك أثراً كبيراً فى تفكيرى . ذلك هو ثلاثة أحواض (أو صوانى) من الرمل . فإننى ما زلت أردد فى أثناء رحلتى كلاماً كثيراً عن « خصوبة » الأرض فى الصحراء . لكن كثيراً ما صادفت مساحات رملية شاسعة جعلتنى أحدث نفسى قائلا « على الأقل هذه الرمال لا خير فيها » لكننى وجدت فى أحواض الرمل الثلاثة الرد على اعتراضى هذا . فقد كانت الرمال فى الأحواض الثلاثة مأخوذة من بقعة واحدة وهى كثيب رملى . أولها احتوى على رمل دقيق مثل ذلك الذى كانوا يستعملونه فى الساعة الرملية والثانى تحول بعد معالجة سنة واحدة إلى تكتلات رملية يعنى أنه تحول إلى تربة زراعية ، والحوض الثالث بعد علاج سنة ثانية ازدادت تكتلات الرمل فيه تماسكا أى أنه تحول إلى تربة خصبة حقيقية تحللت فيها فعلا مواد نباتية .

وليكن معلوماً أنه لم يكن ثمت علاج للرمل فى مدة السنتين إلا الرى والرى فقط بمياه خالطها بعض المخصبات الصناعية . وكانت نسبة خلط المخصبات هى نفس النسبة المستعملة فى رى و إخصاب أرض الزراعة العادية ، ولم يكن هناك فرق بين مقادير الرى والتسميد إنما كان الفرق فقط فى طريقة الخدمة فإن الرمل فى الحوض كان يعالج بتقليبه مرات عديدة فى أثناء النهار الواحد ، و بهذه الطريقة أمكن أن يتحول الرمل إلى تربة متماسكة ذات نسيج خصب رأيت النباتات فيه نامية فعلا .

وهذا يرينا أهمية الافادة من علم كيمياء التربة وعلم الأحياء فيها ، فلقد استطاع الكيمائى أن يعرف ما تفقده الأرض الناقصة من عناصر الصلاحية للزراعة ، وساعده عالم الأحياء باستحثاث هذه الأرض حتى تستعيد حيويتها . لأن التربة كائن حى وليست مجرد تجمع مواد معدنية كيفما اتفق .

ولقد رافقنى فى رحلتى بعض الخبراء من حكومة إسرائيل مثل دكتور جولد سلاجر مدير صيانة التربة ، الذى سبق لى التنوية به ، لأنه الخبير ذو الخواص والمزايا المطلوبة لمهمته ، وهو من كبار الموظفين الذين عليهم تعتمد اسرائيل فى رخاء مستقبلها ، ومع ذلك فإنك حين تقابله لا تفرق بينه فى مظهره و بين أى عامل يعمل قريباً منه فى الزراعة ، فقد كان يلبس ثياب ميدان الحرب : جاكته خاكى فوق بنطلون قصير ورأيته مستعداً فى كل لحظة أن يقفز فيجلس فى كرسى قائد المحراث الآلى ليعلم المستعمر الجديد كيفية استخدام المحراث فى هـذا النوع من التربة . وقد قام بعدة رحلات فى الخارج ليقف بنفسه على طرق صيانة التربة ، ومن قبـل تلقى علومه على الأستاذ لودر ملك Prof. Lowdermilk ، الذى سيكون من حظى أن أقابله قريباً .

و بالرغم من منزلة جولد سلاجر هذه نراه على الدوام عضواً عادياً فى المستعمرة التى ينتمى إليها كيبوتز Kibbutz » ولـكى تقف على حقيقة الأحوال فى إسرائيل ، لا بد أن نذكر لك شيئاً عن نظام المستعمرات « كيبوتزيم Kibbutzim » . وخلاصته أن المستعمرة هى « صورة نموذجية للفلاحة وأسلوب الحياة معا » فان هناك أساليب مختلفة للحياة فى إسرائيل عدا نظام «الـكيبوتزيم» ، فمنها مثلا نظام الموشاف moshav بموجبه يأخذ المواطن حقلا من الأرض ليفلحها من صندوق المال الوطنى اليهودى» — وكل حقل لا يزيد عن حاجـة أسرة واحدة بما فيها أطفالها ليعملوا جميعاً وعلى كل أسرة أن تنتج ما يكفى معيشتها فإن زاد المحصول عن قدر كفايتها يضم للزيادات المشتركة ليباع بالطريقة التعاونية ، ثم يوزع على كل أسرة بنسبة ما قدمت فيه ومن المحظور لديهم استخدام العمال . من غير أسرته . ولـكن المتعارف بينهم نظام « المجاملة » good deed . وهو أن يعاون بعضهم البعض فى مناسبات الشدة أو ضيق الوقت . ويوجد للجماعة المـكونة « للموشاف » مؤسسات عامة مشتركة بينهم مثل المنتدى العام ، والعيادة الطبية ، والمدرسة ، والمستشفى ويجوز لهم التعاون فى شراء آلة أو أداة زراعية تكون ملـكا مشتركا لمن يساهموا فى شرائها . وهكذا تجدهم يعيشون فى بيوتهم و يعملون فى عملهم كأنهم أفراد مستقلون لا تربطهم

بغيرهم رابطة ما . والأرض وديعة لديهم يستعملونها فى جميع ما تصلح له وتمكث فى عهدتهم مدة ٤٩ سنة ، و بعدها تعود بحسب حكم أو عرف اليوبيل jubilee فى التوراة إلى ملك الجماعة العامة . ويجوز أن تستمر فى عهدة مستأجريها السابقين إذا ثبت أنهم أحسنوا إدارتها .

وهناك طريقة ثالثة تسمى « شيتوفيا » shitufia وهو نظام جماعى غير شيوعى non-communal collective بموجبه تشترك الجماعة فى فلاحة الأراضى — أى فى العمل الخارجى — فى حين أن تستقل كل أسرة بنظام معيشتها الداخلى من أسلوب الطعام والنوم وتربية النشء الخ ومع ذلك فان هـذا النظام يحتم على ربة المنزل أن تعمل ساعات معينة كل شهر فى خدمة الجماعة (شيتوفيا) .

وفضلا عن هذه الأنواع الجماعية ، يوجد نظام آخر بموجبه تكون الأرض ملكا لحائزها سواء أكان مزارعا يتولاها بنفسه أو من الملاك يؤجرها لغيره ، كالمتبع فى ريف بريطانيا ولا يختلف عنهم إلا أنهم فى إسرائيل يعيشون فى شكل قرية مجمعة — وليس كل فى عزبته أو مزرعته الخاصة — لحاجة إسرائيل إلى تكوين الجماعات .

نعود إلى « الـكبوتز » لأنه فى الواقع هو أساس النظام الاجتماعى لديهم . وأنه نظام اشتراكى بمعناه الأوسع ، فإن الأرض يملكها المجتمع و يقوم على خدمتها المجتمع وأدوات الفلاحة يملكها أيضاً المجتمع ، حتى أن ملابس أعضاء « الـكبوتز » يتسلمونها من مجتمعهم كما يتسلم الجنود ملابسهم من مخازن معسكرهم . مما يؤدى إلى وحدة زى الرجال ، أما النساء فيتصرفن ببعض الحرية فى اختيار ما يلائم كلا منهن من المنسوجات والأشكال وطراز القميص (البلوزة) والسروال (شورت) ورباط الرقبـة وغطاء الرأس ، طرزا قد تكون باريسية ولـكنها بقدر محدود . ويتناولون الطعام فى حجرة الطعام العامة ، وينامون فى مخـادع مشتركة (عنابر) — (هذا بالنسبة لغير المتزوجين) أما المتزوجون فينامون فى قطاعات محجوزة من تلك العنابر . ولا يعيش الأطفال مع أهليهم ، فإنهم ثروة المجتمع وحده أو أبناؤه . وكل « كيبوتز » يعنى كل

العناية بتربية أطفاله ولما كان الوالدان كلاهما فى حقـــل العمل ، عملوا للرضع « دور حضانة » تؤويهم وتقوم على تنشئتهم —crèche— وللأطفال « رياض أطفال » nursery school « ومدارس » لتعليم الصبيان teaching schools . وهكذا ينشأ الأبناء فى معزل يكاد يكون تاما عن أهليهم بحيث لا يجتمعون بهم إلا فى سويعات بين نهاية العمل اليومى والميعاد المحدد للذهاب للنوم . ثم فى العطلات الرسمية عندما تلتئم الأسرة لهذه المناسبات .

و إن الاشتراك فى عضوية «الكبوتز» أو تأسيس وحدة من نوعه ، يعتبر تطوعا قومياً ، فهو وقف الأشخاص أنفسهم للمجتمع . لذلك لا تعتمد الوحدة منه إلا بعد فترة تجريبية يمتحن فيها من يريدون الخضوع لنظام الحيـــاة والعمل المشترك فيه . وربما يكونون جماعة تجريبية تقيم فى معسكر استقبال المهاجرين الجدد ، وقد ينشقون لتكوين خلية مستقلة كما تنشق أسراب النحل من خليتها الأصلية إلى خلية جديدة والقاعدة الأساسية التى لا فكاك منها هى أن أعضاء الكبوتز يخضعون لنظام معيشة وعمل واحد بصرف النظر عن مصادرهم المختلفة الأصلية أو لغاتهم (فإن فى إسرائيل ٣٧ لغة يتكلمها الوافدون من كل بقاع العالم حتى بلاد الصـــين والصحراء الكبرى الأفريقية و بلاد اليمن) . ولا ريب أن الشجار والنقاش يحل وحدة الكبوتز حلا نهائياً . فإذا أمضوا مدة التجربة بنجاح تمنحهم « الوكالة اليهودية » أو « صندوق المال اليهودى المشترك » أرضا ليعملوا فيها مجتمعين و يمدهم بالأدوات والإرشادات الفنية الضرورية لشروعهم فى تكوين مجتمعهم الخاص . أما الكماليات ، والمرافق الحسنة ، ووسائل التقدم الثقافى ، فكل هذه من اختصاص جماعة الكبوتز يهيئونها لأنفسهم وتعتمد فيها الأسر إعتماداً كلياً على جهودها الخاصة .

وقد أصبحت بعض هذه الوحدات غنية وفى سعة عظيمة حتى أنهم ليستطيعون بعث أبنائهم ليتموا تعليمهم العالى فى خارج البلاد على نفقتهم الخاصة ، أو ليتعلموا الفنون والموسيقى ليشحذوا مواهبهم منها . و إحدى هذه المنظمات المسماة «عين حيرود»

Ein Herod وهى من أقدم وأغنى هذه الأنواع مكونة من ١٥٠٠ عضو ولها متحف الفنون اليهودية الخاص بها ولها منتدى فسيح ودار للنقاهة ، يقبل فيه أعضاء « اتحاد الصناعات اليهودى » .

هذا من جهة ومن جهة أخرى أردت أن أزور كبوتزا جديدة فى قرية المنصورة فى شمالى فلسطين قريباً من التخوم السورية فاعترضتنا صعوبة وهى وجود مستنقعات الحولة فى طريقنا Huleh Marahes فى غسق المساء وكان حسابنا أننا ندرك المنصورة قبل الغروب فنجد فيها نزلنا وإذ بنا نجهل الطريق ولا نجد من يدلنا حتى على طريق مناسب يؤدى اليها ، وقد مضينا نصف طريقنا اليها فى طريق جيدة ، ثم وجدناها انقطعت فجأة فى أحضان الجبال وتحت سرادق الظلمة فاضطررنا أن نترجل عن السيارات ونتحسس الطريق فوق التلال بأيدينا وأرجلنا إلى قرية المنصورة ، وقد أطلقوا عليها حديثاً اسم كفر حنصى Kafr Hanassy ومعناها (قرية الرئيس) ولم تكن رحلتنا إليها لطيفة لأننا فقدنا معالم الطريق ، وكلما لاحت لنا أضواء ، لم يكن فى وسعنا التثبت من تبعيتها أهى سورية أم إسرائيلية ؟ وفى كلتا الحالتين يطلب ممن يشاهد متخبطاً فى سيره أن يجيب حارس الحدود إجابات سريعة وقصيرة — شبيهة باعترافات من يستتاب قبل تنفيذ العقوبة عليه — لأن المنطقة تعج بقطاع الطرق المدججين بالسلاح لذلك أمسينا فى خطر شديد حين أقبلنا نحو الحارس المصوب بندقيته نحونا — ولم يكن ذلك غير طبيعى منه — لأنه كان مضطرباً مثلنا ولا يفترق عنا إلا بأن أصبعه فوق زناد البندقية ، ومن حسن الحظ اتضح أنه مهاجر من استراليا فاستطعنا أن نبين له حقيقة أمرنا فى صوت صارخ قبل أن يضغط على الزناد ، وزاد على ذلك أنه تطوع بأن يرافقنا إلى قرية المنصورة فى رحلة مجهدة إلى فوق التل ثم أسفل منه ، متخطين فى الطريق كتلا صخرية من الحجارة مع تحذيرنا طوال الطريق من الألغام الصريحة أو الخداعة التى تخلفت فى ميادين القتال السابق ، خشية أن نصطدم فى شىء منها ، ومع أننى كنت سائرا فى جنح الظلام كنت متصورا تماما فظاعة قطيعة هذه « الكبوتز » وسط هذه البرية المفروشة بالحصباء .

وسرعان ما سرى عنا حين استقبلنا شبان وشابات الكبوتز استقبالا حافلا حاراً أولئك الشباب الذين كانوا فى بداية تجربة عيشهم أو بالحرى تجربة وجودهم فى هذا المكان . ولم تجمع بينهم إلا وحدة اللغة الإنجليزية لأنهم جاءوا حديثا من استراليا وأفريقيا الجنوبية وكندا وكان يلوح على معظمهم كأنهم وافدون من جلاسجو كما جمعت بينهم تربيتهم الإشتراكية والإجتماعية ، وإن هذه المنظمات « الكبوتزم » تنتخب أفراد كل وحدة منها على أساس وحدتهم فى الميول السياسية أو المشارب الدينية .

وقد أمضيت ليلتى الأولى معهم مشاطراً مهندساً ملتحياً قادماً من حوض سفن جلاسجو خيمته ، ولما طلع الصبح ركبنا سيارة نقل اللبن من هذه الوحدة إلى المركز التعاونى حيث كنا تركنا سيارتنا فى المساء ، فجبنا مسالك جبلية ليست بطرق معبدة ، فلمست أن ما تصورته فى جنح ظلام الليل من فظاعة موقع هذه الوحدة ما هو إلا كالظل من الحقيقة بالنسبة لما يعانيه أولئكم الشبان فى هذا المهجر ولم يكن « الكبوتز » كله سوى محلة من رجام وحصباء . كانوا مزودين بدبابات لتحطيم الصخر وجرارات لشق الطرق ولكن ما كانت تغنيهم هذه الآلات عن استخدام أيديهم فى نهاية الأمر ، فى جمع وترتيب شطائف الحجارة ، وكان مطلوبا منهم فوق تعبيد مقرهم ذلك العمل المضنى البدء فى حرث التربة وإعدادها ليكسبوا مالا ينفقون منه على معيشتهم ويشترون منه لوازم « الكبوتز » من أدوات وعتاد . وقد وضعوا هذا الأساس بتأسيسهم مسبكا للمعادن ، فقد اتفق أن كان من بينهم شاب حائز لبكالوريوس العلوم فى المعادن من برمنجهام وبعض المهندسين أمثال ذلك الذى شاطرته خيمته وأول ما صنعوه كان الأنابيب التى تجلب لمحلتهم هذه المياه العذبة من التلال ثم أخذوا يتلقون مثل هذا الطلب من الكبوتزات القريبة منهم التى كان فى مقدورها دفع أثمان مصنوعاتهم من النحاس والحديد كما كان لهم مورد مالى آخر من تأجير بعض أشخاصهم للعمل فى كيبوتز أفيقيم Afikim فى جنوبى بحر الجليل حيث توجد مستعمرة نشأت فى أول أمرها زراعية ولكنها تحولت إلى صناعة الخشب المطبق (الأبلكاج) وتخصصت له لجميع مستعمرات إسرائيل .

ولا يتقاضى العمال المأجورون المستعمرات الأخرى الأجور لأنفسهم ولكنهم يعملون فيها بصفة الأعارة والأجرة تتقاضاها المستعمرة المعيرة من المستعيرة مثل مستعمرة أفيقيم الصناعية . وعلى هذا الأسلوب تستطيع المستعمرة أن تستوفى ما يسد حاجتها الزراعية بتبادل الفائض من محصولها و بتأجير الفائض من عمالها و بالخدمات الصناعية المتخصصة هى فيها . فواجب المستعمرة قبل كل شيء هو تحسين الزراعة لسد حاجات أهلها من الطعام ، ثم للمساهمة فى أطعام باقى المستعمرات فى إسرائيل ، وأخيراً الحصول على فائض يمكن تصديره خارج إسرائيل كما هو حاصل فى محصول الموالح الذى ينتشر الآن فى الأسواق العالمية .

وعندما يلتحق عضو بمستعمرة أو يولد فيها ينتمى إليها انتماء لا انفصام له شبيها بانتماء الرهبان إلى أديرتهم . وقد يغادر العضو المستعمرة بأجازة لمدة مؤقتة لكن من النادر أن يبعد العضو عن المستعمرة نهائياً بلا رجعة .

و إذا ما بلغ الأطفال السابعة عشرة اعتبروا أعضاء فى مجتمع المستعمرة تحسب أصواتهم فى مناقشة شئون المستعمرة مثل المواطنين الكبار سواء بسواء . هذا إن لم يختاروا مغادرة المستعمرة فيسمح لهم بذلك . وكل طالب من أبناء المستعمرة يبعث إلى الخارج ثم يعود بعد إتمام دراسته يعود — ولو بصفة نظرية مجردة — عضوا فى مستعمرته يعمل فيما يعملونه من أعمال عادية ثقيلة مع وضعه مواهبه الفنية الخاصة تحت تصرف مستعمرته و بخاصة لتثقيف أبنائها — هذا لمدة سنة واحدة بعدها يؤذن له إذا رغب أن يغادر المستعمرة مشيعاً بتبريكات أهلها ليتخذ ما يناسبه من أعمال الحياة . والآن أعود لسيرة دكتور جولد سلاجر : أعارته مستعمرته بقرار رسمى لحكومة إسرائيل المركزية ليخدمها بمواهبه الخاصة مثل سائر الخبراء الذين هم فى خدمتها ، حتى لو كان العضو مطلوباً للسياسة الخارجية ، على أن العضو أو الأعضاء المعارين بهذه الكيفية يعودون فوراً لمستعمرتهم إذا صدر منها قرار رسمى باستدعائهم . ومع ذلك كلما سمحت حالة العمل فى الحكومة المركزية بعودته ، يعود إلى مستعمرته ليخدم جنباً لجنب مع أعضاء أسرته و بمثل خدمتهم سواء بسواء حتى يوم العطلة الأسبوعية

ليس على الدوام انصرافا عن العمل لأنه فى الغالب انصراف إلى خدمة مصالح المستعمرة لكن الأسلوب الرتيب فى أزياء المستعمرة ومظاهر الحياة كلها ، لا تمتد إلى علاقات العضو بالأعمال الأجنبية ؛ فإذا شرعت مستعمرة فى مفاوضات سياسية أو مصافقات تجارية أو رأت إنشاء وكالة تجارية لتوزيع محاصيلها ، يؤذن فى هذه الحالات للعضو المنتدب لها بقرار شورى من أعضاء المستعمرة بأن يلبس الأزياء المفصلة خصيصاً المناسبة لمهمته ، كما توضع تحت تصرفه النفقات المناسبة لمظهره بل ربما يوضع تحت تصرفه عربة فاخرة ، وكل هذه النفقات على حساب المالية العامة فى المستعمرة ، وهكذا طالما كان عضو المستعمرة فى مصلحة عملية خارجية يحق له أن يتخذ من المظاهر ما يلائم ويساعد على نجاح مهمته بصفته رجلا مثل سائر رجال الأعمال ، ومع ذلك فبمجرد انتهاء مهمته يعود إلى المستعمرة ولمظهر سائر الأعضاء فيها والذى يدهش له المطلع على أحوال هؤلاء المستعمرين أن الخبراء بينهم أو المنتدبين منهم انطبعوا بطابع أرضهم « فهم من محصول زراعة بلادهم » ، فهم عمليون شحذهم التدريب العملى قبل أن يصقلهم فيما بعد التعليم النظرى والفنى . وأنهم واقفون على صعوبات العمل التى تعترض الفلاح عادة ومع ذلك فالغيرة — التى هى مزية الرواد فى كل عصر — تجعلهم لا يقفون مكتوفى الأيدى جامدين على ما ألفوا من أساليب ، بل يقدمون على التجارب الجريئة — مثل مشروع لودر ملك Loudermilk plan للافادة من وادى الأردن الذى يشتمل علاوة على أمور أخرى شق قناة تصل البحر الأبيض المتوسط بوادى الأردن .

بروفسر والتر . ك . لودرملك Prof. Lowdermilk ليس يهوديا ولو أن اسمه أصبح وثيق الارتباط بفلسطين لشدة ما فرّغ نفسه لخدماتها ورعاية مصالحها العملية فهو أمريكى من المتخصصين فى صيانة التربة الزراعيـــة ، بعد دراسة آثار التعرية والصحارى وليدة الاهمال درس هذه الأمور فى نحو ٣٨ دولة ، ففى سنة ١٩٣٩ عندما كان مديراً لمصلحة صيانة التربة فى حكومة الولايات المتحـدة ، خرج يجوب أقطار الحضارات الدارسة ليأخذ ما يفيده من عبر ويعود بها لخدمة بلاده الولايات المتحدة فقد شاهد أن قومه أحدثوا فى ٣٠ سنة من الصحارى الصناعية ما أحدثته أيدى الزمان

فى ٣٠٠٠ سنة فى العالم القديم وذلك باستئصالهم الغابات استئصالا واسع النطاق ، وإن عاصفة التراب التى جللت مدينة نيويورك فى ظهيرة يوم من الأيام والتى هبت من فجوة التراب فى أكلوهوما وداكوتا the Dust Bowl of Oklahoma and Dakotas كانت النذير الذى هددنا بما نحن فيه الآن وبما سوف يحيق بالأجيال المستقبلة .

ولكن من حسن حظ الأمريكيين أنهم عنوا كل العناية بما أنذرهم به النذير ، فوجد من بينهم رجال أمثال لُودَرْ ملك نهضوا ليضعوا من المشاريع ما يثبت التربة ويصونها من التحول والفناء ، وبفضل مشاريعهم لم يقف الأمر عند توقى الدمار ، بل ساعدت على استرجاع الكثير مما ضاع فى الزمن الماضى .

وقد جال لودر ملك جولة فى شمالى أفريقيا وفى الشرق الأوسط كانت مطابقة كل المطابقة لرحلتى هذه . وكان له أكثر منى فرصة اجتياب صحراء الصين وأخيراً انتهى به المطاف إلى صحراء فلسطين .

ولما كان لودر ملك مسيحياً مخلصاً ودارساً للتوراة لم تكن فلسطين فى نظرة قطاعا من الصحارى التى شاهدها لكنها كانت «الأرض المقدسة» التى فاضت لبناً وعسلا ، ولكنها اضمحلت ثم تلاشت ، ولم تكن رحلته إليها رحلة معاينة ودرس فقط بل كانت حجا وتعبدا وتملك مشاعره وسيطر على إرادته . حين وجد منكوبى الطغيان النازى ينكر عليهم الاستيطان فى وطنهم القومى[1] ثم رأى بعينه ٣٠٠ مستعمرة يهودية تعانى الفاقة وتتحمل مؤسساتهم التعاونية الشدائد فى سبيل استصلاح الأراضى التى لبثت الأحقاب الطوال مواتا لا خير فيها ، ولكنهم استطاعوا أن يحولوا الأقاليم التى كانت مباءة لميكروب الملاريا إلى حدائق غنية وحقول برتقال شاسعة وأنهم أسسوا مدينة عظيمة هى « تل أبيب » فى بقعة كانت منذ ٣٠ سنة كثبان رمال زاحفة على العمران .

فما كان منه إزاء هذه الأحوال السيئة إلا أن وضع مشروعا لاسترجاع فلسطين ووضع نصب عينيه حاجتها إلى شيئين جوهريين — الماء والقوة — وفطن إلى أن المصدر الرئيسى لطلبهما يجب أن يكون نهر الأردن ، الذى تتدفق مياهه العذبة ومياه

(١) هكذا ولكنهم بذروا البذور منذ أكثر من ثمانين سنة كما ورد فى مقدمة الفصل (المعرب) .

روافده اليرموك والزرقا من الشرق منحـــدرة نحو الجنوب لتصب فى البحر الميت المنخفض عن سطح البحر ١٢٩٢ قدما لذلك اقترح عليهم تحويل مجرى المياه العذبة عن منصرفها إلى حوض البحر الميت إلى مجموعة قنوات وترع تتشعب فى سهول الأردن لتروى نحو ١٥٥٠٠٠ فدان من الأراضى الزراعية ويقول إن نهر الأردن على كل حال غنى بالمياه وفيه ما يزيد على هذه المقادير أضعافاً مضاعفة مما يكفى لرى مساحات تبلغ خمسة أضعاف المساحات الخصبة فى الوادى . لذلك يرى أن تحول المقادير الزائدة منه إلى منطقة بحيرة الحولة Lake Huleh فى شمالى بحر الجليلى ، والحولة الآن ليست إلا منطقة مستنقعات وأراض رخوة وغياض متتابعـة موبوءة بالملاريا ، وفى الامكان تجفيفها و إصلاحها وضمها للأراضى الخصبة فى سهول ازدرايلون و بيسان على الشاطىء الغربى من نهر الأردن Esdraelon & Beisan ، فإذا تحقق ذلك تصبح «الحولة» مركزاً من مراكز الاستصلاح ، وحينئذ يمكن تجفيف الـكثير من الأراضى الحبيسة فى المياه الضحلة التى لا يتهيبها رجال العلم فى إسرائيل ولن يقفوا إزاءها مكتوفين بل فى وسعهم أن ينقلوا الحشائش من الغياض و يجففوها و يردموا بها الأراضى الرخوة فتصبح بالتدريج متماسكة صالحة للزراعة .

ثم يطمع إودر ميلك بعد تحويل المياه العذبة عن حوض البحر الميت أن يشغل المنخفض المتخلف فى هذا البحر بمجموعة من القنوات والأنابيب الصادرة من البحر الأبيض المتوسط بقرب ميناء حيفا لتنحـــدر فى وهدته المنخفضة عن سطح البحر بنحو ١٢٠٠ قدم و يستخدم مساقطها فى توليد الـكهرباء ما قد يبلغ ألف مليون من كيلوات ساعات فى كل سنة .

ولا يبعد وادى الأردن عن حيفا بأكثر من ٢٥ ميلا فهو يقترح أن تنقل مياه البحر فى ترعة مكشوفة لمسافة سبعة أميال فيما بين حيفا وجبل كارمل Mont. Carmel ثم تنقل فى العشرين ميلا الباقية فى نفق طويل يحفر تحت سهل ازدرائل و ينتهى إلى وادى الأردن .

وضع كل هذه المشاريع قبل خلق دولة إسرائيل على أن تكون شركة بين سوريا ولبنان ودولة شرق الأردن (التى تسمى الآن المملكة الهاشمية الأردنية) وفلسطين اليهودية ، ولكن طرأت بعدئذ الحرب واحتدم النزاع بين العرب و إسرائيل ، كما اتسعت رقعة دولة شرق الأردن فشغلت جانباً كبيراً من فلسطين غربى نهر الأردن فلم يبق فى حوزة إسرائيل إلا نحو ثلث حوض نهر الأردن وثلث البحر الميت .

وكان المشروع الأصلى يهدف إلى استصلاح الأراضى الواقعة عبر الأردن (شرقا) فهى التى كانت خصبة فى سالف الأزمان ، أما والأحوال السياسية تطورت إلى وضعها الحالى فلا بد لنفاذ هذا المشروع من الاتفاق عليه بين العرب واليهود أو إعادة تصميمه بما يتفق سياسياً مع الوضع الحالى .

و بروفسر لودرميلك كان رئيس اللجنة التى عقدتها اليونسكو فى باريس وناطت بها درس المناطق القاحلة ، وهى التى تفرعت منها رحلتى الحالية . وكان فى ذلك الحين مركزاً جهوده فى درس صحارى أفريقيا جنوبى خط الإستواء ، ومن الإتفاق السعيد أننا تقابلنا هنا فى فلسطين فأمكننا أن نتداول الآراء فى مهمتينا المتشابهتين . وسنحت لى الفرصة أن أقف منه على أسس مشروع منظمة وادى الأردن المعادل لمشروع منظمة وادى تنسى فى أمريكا (J. V. A.) The Jordon equivalent of the. Tenessee Yalley Authority

وقد اتفقنا على المقابلة فى بحر الجليلى .

وعندما بدأنا ننزل إلى حوض الجليلى تنازعتنى إحساسات ومشاعر متناقضة ، فقبل كل شىء بدأت أذناى تطنان كما تطن أذنا المسافر فى فى الطائرة حال هبوطها من مستوى عال ، وهذا يرجع للسبب نفسه وهو اختلاف مقاييس الضغوط الجوية ، لأن بحر الجليلى ينخفض عن سطح البحر بنحو ٦٨٢ قدما ، زد على ذلك وعورة الطريق وانحدارها انحداراً شديداً مما اضطربت له أعصابى ، وخالط هذه الإحساسات الطبيعية انفعالات أدبية أخرى .

كل هذا والسحب متجمعة فوق وادى الأردن ، فظل الوادى سجالا بين الشمس والظلال ، وماء بحر الجليلى يتلألأ كصحيفة من الفضة وطيور النورس تزف بأجنحتها البيضاء ومن وراء ذلك كله عاصفة مخيمة فوق هضبة باشان Bashan ، وهى الهضبة الجاثمة عبر الأردن .

وعند الأفق أقيمت نقطة حدود إسرائيلية هى مستعمرة عين جيف Ein Jev. وهى « كبتز المثقفين » المنوط بهم حراثة الأرض ، وحراسة الحدود ، حيث تربض فوقها بمئات من الأقدام ، الخطوط السورية تحرسها كتيبة عربية ، وقصارى القول كنا فى هوة سحيقة من جميع المعانى : الطبيعة والجيولوجية والسياسية .

وقام فى نفسى نزاع آخر ، حينما تأملت ذلك الفضاء الواسع من بحر المياه العذبة تشق عبابه مراكب الصـــــيد غير مكترثة بالعاصفة التى تتهيأ للهجوم على البحر ، فتساءلت كيف تكون الأحوال يا ترى بعد عشر سنوات حين ينحسر هذا البحر عن نصف مساحته ؟ إذ لابد أن هذا أو ذاك من مشروعى لودرملك سيترتب عليه هذا الإنحسار المائى عن نصف مساحة الجليلى .

ولما عدت إلى البر مع بروفسر لودرملك توجهت إلى مدينة « القدس » لبحث مشروع وادى الأردن مع واضعيه من مهندسى إسرائيل ، ولشد ما كانت المفارقة بين زيارتى للقدس لهذا الغرض وما كنت أحس به لو زرتها لمجرد الحج بوصفها الأرض المقدسة من اليهود والنصارى والمسلمين على السواء .

والحدود بين إسرائيل والأردن تقع فى داخل مدينة القدس ، وقد تضيق منطقة الحياد بينهما فتنحصر فى عرض الشارع ، ولكنها بالنسبة لى وجواز سفرى يحمل طابع إسرائيل ، كانت على ضيقها معادلة لاتساع المحيط الأطلنطيق .

وكنت أعلم من قبل أن إسرائيل وضعت يدها على « القدس الجديدة » والأردن على « القدس القديمة » بما تحويه من مقدسات ومعالم دينية . ومع ذلك فقد شعرت

شعوراً حسناً لمشاهدة القدس الجديدة . ولعل ذلك من رؤية مبانيها الحديثة المتناسقة تناسقاً بديعاً . ولو أن مبانيها من الحجر المنحوت ذى اللون الأحمر وليس فيها مبان بالآجر أو الأسمنت المسلح فإن هذه الأنواع من البناء محظورة بقانون قديم من وضع البريطانيين ليحفظوا على المدينة طابعها التاريخى ومازالت إسرائيل عاملة بهذا القانون .

ولقد حدث فى ديسمبر من سنة ١٩٤٩ أن دكتور دى ليوو Dr de Leeuw الذى جاء من هولندة اصطحب معه فريقا منتخبين من بلدان مختلفة فى العالم . بقصد تصميم خطط إصلاح الرى فى إسرائيل ومن ضمن ذلك بحث مشروع وادى الأردن . لأن المشروع الأصلى الذى وضعه لودرملك أصبح واجب التعديل بسبب التغيرات الجغرافية والسياسية الطارئة على هذه المنطقة وأهمها الحدود غير المنسجمة بين إسرائيل ومملكة شرق الأردن العربية وتعذر الوصول إلى اتفاق بين هؤلاء المتخاصمين و إن كان لودرملك نفسه مازال متمسكا بأنه لا يجوز القيام بأى منشآت تحول مستقبلا دون تعاون دول المنطقة بعضهم مع بعض .

وكان يسيطر على ذهنه تماماً مشروع «منظمة وادى تنسى» Tennesse V. Authoriy الذى كان يهم سبع ولايات من الولايات المتحدة الأمريكية و إن كانت جميعها تتبع الحكومة المركزية ، ولكن هذه الحكومة المركزية ليس من سلطانها الدستورى التدخل فى الشئون الداخلية المحضة للولايات .

وغاية ما فى الأمر أنه لما كانت مراقبة شئون الرى فى الولايات كلها من اختصاص مهندسى الجيش سنحت الفرصه لتدخل الحكومة المركزية بعض الشىء . ومع ذلك فمراقبة شئون الرى معناها مراقبة إنشاء الخزانات ، ومراقبة الخزانات لا تقف عند مراقبة الرى بل تتعداها إلى مراقبة المساقط المائية المولدة للكهرباء ، وانتشار استخدام الكهرباء غير من طبيعة وادى تنسى تغييراً كلياً. لذلك يرى لودرملك أن مشروعا من قبيل مشروع وادى تنسى لعله يعود بفوائد جليلة على بلاد الشرق الأوسط .

ولكنى وجدت من تحدثت معهم من إسرائيل مصرين على أن يعملوا شيئا سواء أمكنهم الوصول إلى اتفاق مع الدول العربية أم لم يمكنهم ذلك .

وأول مايتخذ من خطط إصلاح الرى هو تنفيذ الخطط المحلية الخالصة ، مثل حفر الآبار فى بعض المراكز لاستخدام مياهها بقرب الحدود النائية فى داخلية البلاد وهى الخطة التى شملت استخدام نهر يار كون Yarkon River الذى يجرى على مقربة من تل أبيب والآبار الساحلية فى هذه المنطقة وإنها خطة يمكن أن تعتمد على نفسها ، وإن يكن المفهوم أن مآلها إلى الارتباط بمشروع وادى الأردن . حتى هذا المشروع الضيق له فائدته الكبرى فإنه يعين على توصيل المياه بالأنابيب إلى منطقة النقب ويمر فى طريقه على مدينة القدس ، وإن إعداد مورد مياه للقدس لا ريب أنه عمل جليل . فإنها تعتمد على خزانات المياه يحبسون فيها مياه المطر وعلى مورد يستمد من آبار بيت لحم Beth Lehem تحمل مياهه الأنابيب إلى القدس وهذه القرية تبعد عن المدينة نحو خمسة أميال وهى الآن فى حوزة العرب .

لذلك انقطعت مياهه عن القدس الجديدة مما يحتم على إسرائيل أن تنقل مياه الشرب من ستين ميلا بدلا من خمسة أميال .

والمشروع يرمى إلى مد أنبوبتين ضخمتين تنقلان المياه من منطقة نهر يار كون إلى داخلية البلاد ثم إلى الصحراء ، أولاهما تتبع القطاع الساحلى وثانيتهما تمتد شرقا إلى الداخل مارة بالقدس ومنها إلى الصحراء ، والغربية أو الساحلية التى ستكون قناة خصيصة للرى ستحمل فى طريقها مياه مجارى تل أبيب مضافا إليها مياه نهر اليار كون إلى النقب أى على مسافة ٧٥ ميلا ، وكان من العجيب بل المدهش حقاً أن يشهد الأنسان فى الصحراء (كراكة) آلية تقضم الأرض قضماً وتفرغ من فيها كل مرة طونولاته من الرمال لإعداد الخندق الذى تمر فيه الأنبوبة الضخمة فى طريقها إلى النقب .

وكل مشاريع الرى الصغرى ودق الآبار هنا وهناك مآلها لأن تندمج فى مشروع

الأردن الكبير ، وهو مشروع يماثل فى نهايته مشروع وادى تنيسى الأمريكى الذى يحقق خمس صور مختلفة من مشروع لودر ملك الأصلى ففى صورة من صوره تنقل مياه البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الميت دون أن تمس نهر الأردن وهذه الصورة تشتمل على حفر قناة طويلة مالم يتم الوصول إلى اتفاق مع العرب . وصورة ثانية هى مد قناة من حيفا إلى نقطة تجاه الأردن لاتتعدى حدود إسرائيل . وصورة ثالثة هى مد قناة من حيفا أيضاً إلى نقطة شمالية فى حوض الجليلى لا تتعدى حدود إسرائيل أيضاً . وصورة رابعة أن تمتد قناة من البحر الأبيض المتوسط بقرب غزة التى هى الآن فى منطقة نفوذ لمصر وتنتهى إلى البحر الميت والصورة الخامسة أن تمتد القناة من النقطة القصوى فى حدود إسرائيل وهو نقطة إيلات الواقعة على خليج العقبة وتنتهى فى الداخل إلى البحر الميت . وكل هذه الصور الخمس تنتهى إلى صب مياه البحر فى منخفض البحر الميت بقصد توليد الكهرباء .

وتوجد أيضاً مشاريع مختلفة لاستخدام مياه الأردن العذبة منها مشروع لتجفيف مستنقعات منطقة الحولة وقد بلغت تقديرات تكاليفه خمسة ملايين جنيه . وجميع هذه المشاريع تستطيع إسرائيل أن تقوم بها مستقلة داخل حدودها دون أية حاجة للتعاون مع الدول العربية المحيطة بها . فأحدها مثلا يرمى إلى تحويل مياه الأردن الأعلى — بقرب الحولة — إلى منخفض قريب منها وهو ساحل البطوف Sahl El Battauf غربى بحر الجليلى فيتكون منها خزان كبير ، ترفع منه المياه بالآلات وترد إلى وادى الأردن الخصيب ، كما يمكنها أن تزود مجرى المياه الذى يراد إعداده ليصل إلى النقب ثم بتحويل مستنقعات الحولة وبأغلاق فتحة الأردن الموصلة إلى بحر الجليلى وحفر قناة حلوة إلى سهل بسيان Beisan يضيق هذا البحر ويتحول إلى بحيرة صغيرة فتتحسر مياهه عن ٢٠٫٠٠٠ فدان تستخلص للزراعة .

وإن البحيرة التى ستنشأ بهذا التحويل ستبقى مياهها عذبة أو على الأقل لاتتحول إلى مثل ملوحة البحر الأبيض المتوسط قبل مضى ٣٠٠ سنة ولا إلى ملوحة البحر الميت قبل مضى ١٠٠٠ سنة .

ولعل قائلا يزعم أنه لم يكن ثمت ضرورة تحفز إلى تضييق بحر الجليلي ذى الذكريات الدينية المقدسة ولـكن العقل والمصلحة العامة المشتركة، تهيب بجميع الدول المحيطة به وتقنعهم بامكان تحويل الأردن إلى مصدر مياه وقوة نافعة لجميعهم على السواء .

ولقد كانت رحلتى إلى إسرائيل أثقل على كاهلى منها إلى أى جزء آخر من رحلتى الطويلة ، فلقد ألح على كل من قابلته بضرورة فحص هذا الأقليم ودرس مشكلاته لأقف على ما هو حاصل وما يمكن أن يحصل فيها مستقبلا ، وتلبيتى لهذه الرغبات جعلتنى أبدأ عملى فى الفجر وأواصله إلى الساعة الثانية من الصباح التالى . ولقد اضطررت مرة من المرات أن أغادر خيمتى فى أقصى شمالى إسرائيـل فى الساعة الخامسة صباحاً لأصل فى الساعة الخامسة بعد الظهر فى اليوم نفسه إلى « إيلات » فى أقصى حدودها الجنوبية على قمة خليج العقبة أو بعبارة أخرى لأنتقل بين بلدة « دان » التاريخية فى أقصى الشمال إلى « بير سبع » فى الجنوب ، ولا أقف بل أواصل الرحلة لأرى مراكز كثيرة فى النقب ممتدة إلى قمة خليج العقبة .

وشعب إسرائيل مقتنع بأنه باستصلاح أرض دولتهم ونصفها صحراء — يمكنها تدبير العيش لمليون أو مليونين آخرين من السكان فضلا عن المليون النازلين بها حالا وأنهم يعتقدون أن بهذا الاصلاح تستطيع دولتهم أن تغذى المهاجرين اليهود الذين لجأوا إليها فارين من وجه المضطهدين وغيرهم من الذين مازالوا يجمعونهم من الأنحاء السحيقة وراء الطرق العالمية مثل الصحراء الـكبرى ، وصحراء بلاد العرب ، وغيرهم وغيرهم . وأنه زعم يقابله الـكثيرون من ذوى الرأى والنفوذ بالشك الـكثير ولـكنهم يردون على المعترضين بأن دولتهم قامت على أساسين قويين ! على الحماسة المستمدة من العقيدة الدينية وعلى العلم الحديث . ولـكن علماء الاقتصاد لا يدخلون هذين الاعتبارين فى جداول حسابهم .

وطالما وصفوا فلسطين بأنها « القدر الذى يغلى فى الشرق الأوسط » وأنه ليس بقدر يغلى ، بل هو « مرجل مغلق يغلى تحت الضغط a preasure cooker » لأن القوم يحاولون أن يتمموا فى جيل واحد ما تمه غيرهم فى أجيال متعاقبة ، وإنهم يحاولون ادماج فلول جمعوها من البادية من اليمن مثـــلا ما زالت على مستوى حضارة القرن الثانى عشر بفلول أخرى جىء بها من أعلى مستويات الحضارة العقلية والفنية الحديثة وهما بالطبع لا يلتئمان ، فان اليمنيـين مثلا الذين يرى البعض أنهم سلالة تلك الأمة العريقة التى أسسها سليمان النبى (عليه السلام) ، ويرى آخـرون أنهم من سلالة المصريين القدماء ، لم يروا الطائرة فى حياتهم حتى فاجأتهم طائرة تيودور لتقلهم إلى مهجرهم الحالى حول صهيون ! وقد تم نقل ٥٠٠٠٠ نسمة منهم بهذه الـكيفية . وعلى هذا النحو وجد فى إسرائيل الحالية ألوان لا عدد لها من الحضارات والثقافات واللغات التى يراد بالممكن والمستحيل أن يندمجوا ويكونوا مجتمعاً واحداً . وكل شىء لديهم جديد بالغ فى الحداثة حتى أنك لا تكاد تجد إنساناً يقول لك « لقد جربنـا هذا الشىء فلم نجده صالحاً » حتى فى الصحراء وعبرتها باقية أمامهم من أيام الحضارات المنقرضة والأمم الخوالى تراهم يقـولون لك « لقد صلحت فى وقت ما ، فلا بد أنها تصلح معنا الآن ! » .

الفصل الحادى عشر

تذييل لقصة الرحلة

لو زرت حجرة عمليات عسكرية فى مركز إحدى القيادات العامة فى أثناء الحرب العالمية الثانية لشهدت كبار الضباط الذين تزدان حللهم بالشارات وعلامات الرتب يلعبون على مائدة مغطاة بالرمال ويدفعون دبابات من ناحية إلى أخرى ويركبون قطع البنادق والمدافع وكل هذه نماذج مما أعد للعب لا أكثر من ذلك . ولعلك لو شهدتهم على هذه الصورة تنعى عليهم أنهم يهزلون والحرب جادة ومحتدمة ، لكنك لو اطلعت على الحقيقة لعلمت أنهم فى صنيعهم هذا كانوا فى شغل شاغل أبعد ما يكون عن الهزل . فأنهم فى لعبهم هذا كانوا يضعون الخطط ويحركون المناورات بالنماذج الصغيرة لوقائع كبيرة تخوض غمارها جحافل ضخمة من الجيوش ، وتذهب معها مهج وأرواح .

واللعب على « مائدة الرمل » هذه قد يكون ذا نتيجة حاسمة فى ميدان الحرب الحقيقية ، لأنه باستخدام الرمل وأحياناً الصلصال يمكن عرض الحركات وبيان المواقع بيسر وتفصيل ، وإن بعض العقبات والمصاعب لا يظهر جلياً بالتخطيط على الورق فى حين أنه بتخطيط الرمال ينكشف فيمكن الحذر منه قبل وقوعه .

حينما كنت فى طرابلس اقترح علىّ ضابط كبير سابق من أركان حرب مونتجومرى — والآن هو مدير مدنى مختص بحل مشكلات كالتى أعنى أنا بحلها ودرسها الآن — أن استخدم مائدة الرمل لتعليم الناس تحركات الرمل فى الصحراء . وكان مستحضرا فى ذهنه البدو الرحل وأطفالهم الذين بدا له أنهم مستعدون لأن يفهموا

ويعملوا بما يتعلمونه بالتجربة العملية . فكان من رأيه إعداد حوض مملوء بالرمل الذى يمثل قطاعا معيناً من الصحراء ، ثم يسلط عليه مراوح تمثل الرياح ورذاذات تمثل المطر ومواقد تمثل حرارة الشمس ، وأنه يستطيع بهذا التمثيل أن يعلم القوم كيف تبنى العواصف الرملية الكثبان وكيف تحتُ المياه الصخور وكيف تجفف الشمس التربة وتحيلها إلى رمل أبيض ما لم تحميها الظلال .

فإذا ما فهم القوم آثار هذه العوامل ، يشرع بعدئذ يعلمهم كيف توقف عند حدها . وكيفية توق آثارها وهنا يمكنه أن يغرس أشجاراً نموذجية ليوضح عليها فوائد الأشجار الحقيقية فهى تشبه المظلات « تقى من المطر » و « حواجز الرياح » تصد هبوبها وتحطمها ، ويمكنه استخدام عيدان الثقاب ليشرح كيف يكون الشجر والنبات مثبتا لرمال الكثبان . وبعد هذا الشرح النظرى رأيته فجأة جلس القرفصاء فى بقعة صحراوية وبسط خريطته الأرضية ، وارتجل عليها حوض رمل مثل فيه بقعة الصحراء التى شرحها نظريا ، ثم رسم عليها خطوطا مثل خطوط المحراث ، وإذا بهذه الخطوط يعصف بها الريح ، فأعاد تخطيطها معارضاً بها « مهب الرياح السائدة » فاستطاعت فى هذه المرة أن تثبت . ثم استخدم « تيار العادم » الخارج من عربة جيب ليمثل عاصفة صحراوية فشرح كيف تتكون الكثبان الرملية ، كل هذه التمثيليات كانت شبيهة بلعب الأطفال ولكنها مع ذلك كانت صالحة لتعليم دروس كثيرة . لذلك وبعد ما قطعته من آلاف الأميال فى الصحاري ، شعرت بأننى فى حاجة لأن أختصر الدرس وأجعله على « حوض رمل » وقد وجدت من جزيرة قبرص Cyprus هذا الحوض المنشود .

وجزيرة قبرص هى حقاً الأداة العجيبة الصالحة لشرح ما أريد توضيحه من الشئون . فإنها جزيرة فى البحر الأبيض المتوسط تبعد عن ساحل مصر شمالا بنحو ٢٤٠ ميلا وعن ساحل لبنان غرباً بنحو ٦٠ ميلا وعن ساحل تركيا جنوبا بنحو

٤٠ ميلا ، حتى ليرى الإنسان ساحلها من هذه الجزيرة . وتبلغ مساحتها ٣٥٠٠ ميلا مربعاً فهى أقل من نصف مساحة مقاطعة ويلز البريطانية .

وقد كانت آهلة بالسكان منذ ٤٠٠٠ سنة ق . م وتداول عليها سلطان الأشوريين والمصريين والرومان والبيزانطيين والبنادقة والترك ويحكمها الآن البريطانيون ، لذلك تجد عليها طابعاً من كل هذه الحضارات بل أنها غنية بآثار أقدم منها جميعها . كما تحمل تربتها كل الدلائل التى تدل على أنها عانت ما عانت من عسف التقلبات طوال هذه القرون العديدة .

وقد دخلتها المسيحية سنة ٤٥ م على يد القديس بولس ، وكانت قاعدة الحروب الصليبية فقد احتلها رتشارد قلب الأسد ملك انجلترا سنة ١١٩١ م فى طريقه لغزو الأراضى المقدسة ثم باعها فيما بعد لفرسان تمبلار بمبلغ ١٠٠٠٠٠ جنيه The Nights of Templar ولكنهم لسوء الحظ لم يستطيعوا أن يؤدوا الثمن ، لذلك سحبها منهم وأعطاها إلى « جاى دى لوزينيان » Gny de Lusignan ملك أرشليم السابق . فحكمت أسرته الجزيرة نحو ٣٠٠ سنة ثم توالى عليها حكام من جنوة ومن البندقية، ولقد عقد شكسبير مأساة عطيل Othelle على احتلال البنادقة لهذه الجزيرة وما زال بها على مقربة من ديوان الجمارك فى مدينة فاماجستا Famaguata « برج » يشير إلى المكان الذى خنق فيه عطيل ديديمونا . وفى سنة ١٥٧٠ م احتلها الترك ومكثوا بها ٣٠٠ سنة ومنذ سنة ١٨٧٨ م دخلت تحت حكم البريطانيين — وإن كانت مكثت تابعة بالإسم لتركيا . وأخيراً فى سنة ١٩٢٥ م أصبحت من مستعمرات التاج البريطانى A Croud Colony .

وليست قبرص أقليما جافا بالمعنى الدقيق، لأن متوسط قياس سقوط المطر بها سنويا (وهو متغير بين حين وآخر وبقعة وأخرى) مابين ٨ بوصات فى البقاع المنخفضة و٤٥ بوصة فى المرتفعات .

والغالب أنه يسقط فى شكل عواصف غزيرة وقصيرة وذلك من إبريل وأكتوبر من كل عام ، وإن تقلب جو الجزيرة من حار جداً إلى بارد جداً مع غزارة انهمار المطر كل هذه الظواهر تعرض محاصيل الجزيرة إلى التلف الكثير ويتضح هذا جلياً

القادم على الجزيرة جواً فإنه يلحظ قبل الوصول إليها بعدة أميال أن مياه البحر الأبيض صافية الأديم يتغلب عليها لون الطمى المجلوب مع الأنهار التى تصب فيه متدفقة بسرعة شديدة ، مع أن هذه الأنهار تلبث قيعان جافة فى معظم أوقات السنة .

لذلك كان المناخ عاملا مؤثرا فى تكييف الجزيرة بيد أن الإنسان بإهماله القرون المتوالية كان أشد أثرا من المناخ نفسه . لأن التاريخ يروى أن الجزيرة كان يسكنها نحو المليون من السكان ، ولكن توالى الغزو عليها والجفاف والقحط والأوبئة وأرجال الجراد وتعدد المذابح الأهلية كل هذه العوامل هبطت بالعدد إلى ٨٠٠٠٠ نسمة فى سنة ١٧٩٢ م . وقد ارتفع الآن إلى قرابة نصف المليون ، والمأمول أنه فى حوالى سنة ٢٠٠٠ م يعود إلى مليون كامل .

ولذلك يستطيع المتأمل أن يفهم فى لمحة واحدة أو على الأكثر بعد جولة قصيرة فى الجزيرة أسباب تكون الصحراء فى الجزيرة بفعل أو بإهمال الإنسان وكيف يمكن استصلاحها . وقصة هذا الإستصلاح لمعالجة سوء الإستعمال الذى طال على مدى العصور ترجع إلى الثلاثين السنة الأخيرة و بالأخص فى العشر الأواخر منها . فلا تكاد الطائرة تهبط بالزائر إلى الأرض فى مطار نيقوسيا حتى يلحظ أو يحسن به أن يلحظ أن هناك حربا مشبوبة فى الجزيرة وما عليه هو إلا أن يقف موقفا سلبيا لا يعترض نفاذها ويكون فى خضوعه هذا أدى خدمة عظيمة . ذلك أنه بمجرد هبوط الطائرة يحتلها ثلة من « حملة البنادق » ولكن بنادقهم لا تقتل إلا « البعوض » . يرشون بها جميع أجزاء الطائرة والأشخاص القادمين عليها إذا لحظوا أن بعض البعوض تسرب إلى جوها ، لأن المقصود هو ألا تتسرب بعوضة واحدة إلى داخل الجزيرة وتبقى غرف الطائرة مقفلة والركاب ما زالوا بها يغادروها لها ولم يرق ذلك لجارى القادم من بغداد فى الطائرة بل ثار وغضب وقال إن هذا تطهير للركاب من « القمل » .

فلم يسعنى إلا أن ألقيت عليه درساً رخيصاً — لم يكلفه ثمنا — فقد ذكرته بموت الإسكندر الأكبر بحمى الملاريا فى مدينة بابل على شاطىء نهر الفرات ،

وأفهمته كيف أن الصحارى التى يشكو منها — لأنه مهندس رى — هى من صنع البعوض ، لأن الشعب الموبوء بحمى الملاريا عاجز عن صيانة الرى وخدمة المزارع .

ولكن الحمى قد أمحت ولا أثر لها فى جزيرة قبرص بما وجه إليها من حملات لامثيل لها فى التاريخ ، وكان من نتيجتها أن الجزيرة بعد ثلاث سنوات طهرت من البعوض وما يحمله من ميكروب الحمى ، ومن المحتمل كثيرا أن يعلن ذلك رسميا فى احتفال تعزف فيه الأبواق ، فى يوم ١٠ يناير سنة ١٩٥٠ « أن الحمى قد هزمت » .

وكان الإحصاء قبل الحرب يدل على أن ١٨٠٠٠ إصابة من الحمى تحصل فى الجزيرة سنويا . وكان يموت سنويا من كل ١٠٠٠ طفل من أطفال الجزيرة ١٨٠ طفلا متأثرين بالملاريا .

وكانت ثمت منافسة بين هذه الجزيرة وجزيرة سردينيا الإيطالية التى شنت الحرب أيضاً ضد بعوض الملاريا فى نفس التاريخ مثل جزيرة قبرص . فأعطى حاكم سردينيا حاكم قبرص رهانا بان سردينا — ستطهر من البعوض قبل جزيرة قبرص ، وكان مبلغ الرهان وهو ١٠٠ زجاجة من النبيذ ، من حظ جزيرة قبرص .

وقد تم هذا النصر البديع بإشراف مصلحة الصحة العمومية وإدارة مديرها دكتور هوراس شيلى Or.Horace Shelly ولكن « المحرر الأول » كما يلقبونه هو السيد محمد عزيز القبرصى الذى اشتغل من قبل مع سير روتالدروس Sir. Ronald Ross الرجل الذى كشف الدور الذى تلعبه البعوضة فى تنشى حمى الملاريا .

فنظم حملة قوامها ٧٧٠ رجلا ، وقسم الجزيرة إلى ست قطاعات مقسمة إلى ٣٩ قطاعات فرعية ، ثم إلى ١١١ منطقة و ٥٦ ركنا . وكان يطلب إلى رجال هذه الحملة ألا يترك عش بعوض فى ركن من الأركان دون أن يطهر بمادة د . د . ت . مرة كل ١٢ يوما حتى لا يبقى لهذا العدو أى أثر . وعلى ذلك تم تطهير الجزيرة بنفقات قدرها ٣٠٠,٠٠٠ جنية ، أى بمعدل ١٣ شلنا لكل فرد من سكان الجزيرة .

وهناك عدو لدود آخر يعزو الجزيرة من حين إلى آخر ذلك هو الجراد أو الجندب

الطير ذو الأجنحة ، ولسوء الحظ ليس فى وسع فرق المقاومة فى الجزيرة أن تحيط بمواضع بيض هذه الآفة وفقسها ، لأنها قد تبعد عن الجزيرة آلاف الأميال على ساحل البحر الأحمر مثلا أو فى مراكش فى المغرب الأقصى من أفريقيا ، ولكنهم يتعقبون أرجالها إذا وصلت إلى داخل الجزيرة ، وقد نظمت مصلحة خاصة لإبادة هذه الآفات بمجرد ظهورها فى الجزيرة .

ومع ذلك فقد ابتليت بجرادها المحلى ، وهو المعـــيز ، التى يطلقون عليها « الجراد الأسود » لأنها مثل الجراد تلتهم كل ورقة خضراء فى متناول فمها الشره ، وهذه الآفة فى الواقع أشد استعصاء من البعوض والجراد . لأن القبرصيين ألفوا من عهد الأجداد أن يعتزوا بتربية المعيز ، وإن الراعى هو من الأشخاص الظاهرين فى شعب الجزيرة من قديم الزمان ، وقد يكتفى برعى قطيعه الخاص ، وأحيانا يضم له أغنام ومعيز أشخاص آخرين بالإيجار ، وقد ألف القوم أن الراعى يستام قطعانه كيفما اتفق غير مبال زراعة من من الناس يتلفها ، ويشارك المعز والراعى فى هذه الجزيرة محترفو إحراق فحم الخشب و إحراق قمامين الجير ، لأن الجزيرة خلو من مواد الوقود فيما عدا حطب الشجر ، وقد اعتاد الحطابون أن يجمعوه من الغابات بدون تمييز ولا نظام ، ولا ريب أنهم يسرفون فى استخدامه فى قمامين الجير ، تلك الكتبان الضخمة الشبيهة بفوهات البراكين .

وقد صدر حديثاً قانون يحظر استخدام الحطب فى إحراق الجير ، ولا بدأن تحل محله آلات تدار بالبترول ، ومن جهة أخرى أخذ الناس يقبلون على استخدام البترول فى شئونهم المنزلية .

أما مكافحة رعي الأغنام والمعيز فهى المعضلة التى حارلها أولوا الأمر إلى أن أمكنهم فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣٨ أن يعقدوا اتفاقا مع أسقف ورهبان « ديركيكو » Kykko Nonastry أن يتنازلوا عن امتيازاتهم المتوارثة وهى رعى قطعانهم فى غابات الدولة وذلك في نظير مبلغ من المال يتقاضونه منها ، وقد كان هذا اليوم فى تاريخ الجزيرة بارزاً لأن الرعاة الآخرين لم يسعهم إلا أن يتأسوا بالرهبان و يعدلوا عن رعى

قطعانهم فى غابات الدولة . فكانت هذه الحركة خطوة واسعة فى سبيل استرجاع الغابات للجزيرة ، تلك الغابات التى كانت معاول الهدم مسلطة عليها على الدوام لعدم وجود قانون رادع للحطابين والرعاة الذين يهمهم أن يكون الورق الأخضر قصيراً فى متناول الدواب فيعمدوا إلى إحراق الأشجار العالية مكتفين بالأبقاء على الأجم والشجيرات القصيرة التى يعتبرونها مرعى خصيبا لدوابهم . ولم يتأثموا من هذا العدوان ، وربما اعتبروه عملا انتقاميا من رجال الحكومة الذين يحدون من حريتهم فى المراعى .

ونظرة واسعة ألقيتها على الغابة ، من مركز مراقبة إحراق الغابات التى هى على ارتفاع ٢٠٠٠ قدم ، دلتنى على النتائج الحسنة التى يمكن الحصول عليها بتطبيق قوانين حماية الغابات . فقد شهدت أسفل منى الأشجار بدأت تتفرخ وتنمو من شجر الصنوبر والبلوط والتفاح والسرو القبرصى ، وكانت على وشك أن تستأصل من الجزيرة . لكن الأشجار كانت تنجم من الأرض طبيعية لم يغرس أحد منها شجرة واحدة ، وهذه هى مقاومة الطبيعة لكنها عجزت واختفت تحت طغيان المعيز والحطابين ، وما كاد هؤلاء الأعداء يرفعون أيديهم عنها ، حتى برزت خاصية المناعة الطبيعية من مخبئها مرة ثانية .

وقد غرست أخيراً آلاف الأشجار ، غرست حول القرى ، فى مساحات أطلق عليها « مساحات الوقود للقرى » بمقتضى هذه القواعد الجديدة تعهدت القرى ألا تسمح للدواب برعى هذه الأشجار ولا يقدموا هم على قطع شىء منها إلا فى الأحوال المناسبة جدا بعد استكمال نموها ، وبمقتضى هذا النظام إذا اتبع بحكمة سوف يتوفر للقرى الوقود والغابات فى وقت واحد .

وغرست أيضاً الأشجار على سفوح التلال ، التى كانت من قبل جرداء عريت من كل نبات ، مما ترتب عليه انحدار مياه الأمطار منها إلى البحر مباشرة — دون أى عائق يعطل هذا الانحدار — وسوف تصبح الأشجار الجديده وقاية لسفوح التلال من

التعرية والموات . و بضبط المياه بإنشاء السدود ، ومنشآت الرى وبتعليم المزارعين أن يحرثوا أراضيهم بطريقة لاتجعلها تتفتت وتندفع مع المياه إلى البحار ، و باستخدام الطرق الفنية التى شاهدت منها الكثير فى شمالى أفريقيا وفى بلدان الشرق الأوسط استطاع رجال صيانة التربة فى قبرص إحياء آلاف الفدادين بعد أن كانت منهوكة فى طريق الموات ! وقد شاهدتهم منكبين على هذا الاستصلاح ليل نهار حتى برزت قيعان منخفضة فى الصحارى وأصبحت مزارع خصبة منتجة للمحاصيل المختلفة .

و إنى حينما وقفت فوق الجبل أسرح البصر فى وسط جزيرة قبرص ، بعد ماعانيته من بؤس الصحارى ومرارها ، شعرت كأننى عثرت حقاً على أرض الميعاد التى تفيض لبناً وعسلا ! حقاً إن الأرض موعودة وعلى الرجال أنفسهم تحقيق هذا الوعد ، و يشهد الإنسان فى جزيرة قبرص — تلك البقعة الضيقة المحدودة من بقاع الأرض — ما يستطيع بحسن تصرفه أن يحصل عليه من خير وفوز ، و بما كرته العبر من غلطات من سبقوه فى التاريخ ، ومن التجارب الفاجعة كما لايهمل أبدا استخدام مستحدثات الآلات والوسائل ، ولا يدخر جهدا ولا مالا فى سبيل الاصلاح المنشود .

فيما أنا فى قبرص اتفق لى أننى استعرت قاموسا للغة الانجليزية ، قاموسا عاديا لا يمتاز على غيره فى أيه خاصية ، وعنّ لى أن أبحث فيه عن معانى كلمة desert (التى يُقابلها فى اللغة العربية « الصحراء ») لأننى قلت فى نفسى كيف أسافر آلاف الأميال فى الصحراء دون أن أطلع على التعريف اللغوى للفظ « الصحراء » ثم اتضح لى بأن هذا الخاطر لم يكن عبثا فقد تعلمت أن هذه اللفظة (بالانجليزية) لها ثلاثة معان غريبة عن بعضها البعض : (١) حينما تكون « فعلا » يكون معناها يهجر الشخص أو الشىء وهذا محتاج اليه ليفر من الواجب (٢) حينما تكون « اسما » يكون لها معنيان أولهما الأرض الجافة أو الخالية من الماء الذى فيه حياة النبات ثانيهما الجزاء أو العقاب على خطأ ، فأمكننى أن أجمع هذه التأويلات الثلاثة فى جملة واحدة هكذا « إذا هجرنا الصحارى سوف نلقى جزاءنا » .

• If we desert the desert we shall get our deserts •

وهـــذه التأويلات مطابقة تمام المطابقة لأحوالنا إذ أننـا فعلا « فى وقت الحاجة » ومع أن أور با استطاعت أن تصلح ما دمرته الحرب من زراعتها، ما زال فى العالم « ألف مليون » من النسم لا يجدون كفايتهم من الطعام ، زد على ذلك أن سكان العالم يزيدون ليل نهار على مر الشهور والدهور بنسبة فم « أكول واحد » فى كل « ثانية ونصف ثانية » ، وقد نصحنا لورد بويد أور Lord Boyd Orr وهو الذى استحق جائزة نوبل لخدمة السلام ، لأنه خاض معركة الطعام وأنذرنا بأنه من الواجب علينا أن نضاعف طعام سكان العالم قبل حلول سنة ١٩٦٥م على الأقل إلى ضعفى ما هو ممكن فى الوقت الحاضر ، إذا أردنا أن تجد كل نسمة كفايتها من الطعام ، كما لا يجوز أن يغيب عن ذهننا أن المحرومين من الطعام الكافى هم سكان البلاد المعروفة « بالمتأخرة » ، وأنها بدأت تتذمر كلما ازداد فهمها أن أطفالهم لا يجوز أن يموتوا جوعا فى حين أنه من الممكن تدبير إنتاج الطعام لهم ، وإلا فمن حقهـم أن يقفوا تصدير ما تنتجه بلادهم من مواد غذائية إلى البلدان الأرقى منهم بمدى فسيح . وإنهم محقون فى هذا الشعور ، ولـكن مؤدى هذا أن بلدا مثل انجلترا التى هى مضطرة لأن تستورد معظم مواد غذاء شعبها من وراء البحار لأنهم لا يزرعون محليا ما يكفيهم ، لو نفذ ذلك التهديد لأصبحت فى موقف لا تحسد عليه . فلو أن مواطنا أرجنتينيا ممن يسمونهم « جوشو » gaucho قرر أن يستأثر « بشرائح لحم » وطنـه لترتب على ذلك فورا « عجز مقرر اللحم لعائلة بريطانية » .

وعلى ذلك فاننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن الصحراء أقرب إلى بريطانيا أكثر مما نتصوره بمجرد اطلاعنا على الخرائط ، لأننا فى المستقبـل القريب سيكون غذاؤنا مرتبطا ارتباطا وثيقا بمجموع الموارد العالمية ، فاذا شعرت ناحية من أنحاء العالم بالقلة ، سوف يكون صدى ذلك عندنا قلة مثلها .

و بالعكس إذا كان فى وسع بلد من البلدان أن تنتج ما يزيد على حاجتها وحاجة جارتها الملاصقة (كما هو ماثل أمام مخيلتى إمكان إيران أن يوجد لديها فى وقت

ما فائض يكفى جارتها الهند التى تعج بالسكان الجياع وأمكنها أيضا أن تصدر بعض الفائض إلى بلدان قاصية ، إذا تحقق هذا الأمل فسوف يكون صداه الرخاء لدينا بأدراكنا قسطا من ذلك الفائض .

وقصارى القول فى هذا البحث أن العناية بصحارى العالم هى بالنسبة لبلادنا من أوجب الواجبات وهى بمنزلة العناية « بخبزها وزبدها » مباشرة وسواء بسواء . وهذا الذى قلته بالنسبة لانجلترا يصدق على سائر البلدان ، لأنه إذا حصل قصور فى طعام بعض الشعوب ترتب على ذلك قلق الخواطر المؤدى للحرب العامة ، ولن يكون أمر تقدمنا للمساعدة على حل مشكلة الصحارى من السهولة كما نتصور ، فإن الشعوب المبتلاة بها سوف تقابل بالريبة كل تقدمة من الأمم الراقية الغنية للمساعدة على استصلاح تلك الصحارى . ولن يقتنعوا بسهولة بأن هذه المحاولة هى لخيرهم أنفسهم قبل أى قوم غيرهم . ومثال ذلك ما شاهدته فى أفريقيا الشمالية من أن استصلاح الصحارى الذى هو مشروع رائع ومستحق للاعجاب والتشجيع ولكن العرب المقيمين فيها فى حاجة كبيرة إلى إقناعهم بأن هذا الاستصلاح لا يكن إلا الخير لهم ، وحينما أخذت أشرح لهم مزاياه ، وكيف يمكن تجفيف المستنقعات الجنوبيـة بتحويل مياهها عبر جبال الأطلس شمالا اعترض العرب قائلين « نعم ، إنه يرادبه تحويل المياه من جانبنا إلى جانب الأوربيين مستعمرى السواحل » .

حقا إن الأراضى الخصبة على الساحل سوف ستنال حظا وافراً من هذا الاصلاح ولكن المشروع ينطوى أيضاً على وجود عيون عذبة فى السهول العليا تستقى منها قطعان الماشية والأغنام . وفى الحق أنه من واجب الفرنسيين أن يعنوا كل العناية بتوفير المياه واستصلاح الأرض ليستقر فيها البدو حتى لا يضطرهم الضنك إلى النزوح عن الصحراء إلى مدن الساحل ، حيث يحتمل أن تحدث بسبب تعطلهم وعدم وجود الأعمال الكافية لهم مشكلات ومتاعب كثيرة ، فلما شرحت هذه النقطة ، رد العرب علىّ قائلين « لا ، أنهم يريدون أن يحلونا إلى داخل الصحراء » . وإنى أستخلص

من جميع ملاحظاتى أنه من المتعذر جدا إقناع العرب بالتحول عن الصحراء ولكن هذه النقطة ليست إلا ناحية واحدة من نواحى الموضوع المتشعبة .

هذه المشكلة الإنسانية المتعلقة بالناس وعاداتهم فى الصحراء ، هى من أعقد المشكلات المتصلة باستصلاح الصحارى ، حتى أننى لأستطيع القول بأن مساحات شاسعة من الصحارى هى من فعل الناس أنفسهم وقد عاونتهم فى ذلك مواشيهم وأنعامهم ، ولا ريب أن اجتماع الضدين بين المناخ المتناهى فى الحرارة والمتناهى فى البرودة هيأ الأسباب لتقصير الناس و إفسادهم أراضيهم .

وليس من المستطاع فى كل الأحوال إقناع الناس بأن ينزلوا عن عادات متوارثة عن الأجداد كما أمكن إقناع أهالى قبرص أن ينزلوا عن عادة حرية الرعى (حيث شاءوا وكيف شاءوا) و يستبدلوا بها عادات مستحدثة وأفكارا جديدة . وقد يمضى الزمن الكثير قبل أن تقنع عمد ورؤساء القبائل بأنه من الخير والنفع الجزيل لهم استخدام رتل من الآلات الزراعية نفعا لا يتيسر تحقيقه من قطيع كبير من المواشى . وسوف ينقضى زمن طويل أيضا قبل أن يتيسر إقناع البدو ، الذين ورثوا عادة الرحيل والتنقل وألفوها آلاف السنين المتعاقبة ، بأن الخير لهم كل الخير فى التهيؤ لحياة الاستقرار والزراعة حول بقع معينة والعدول عن تجوالهم الموروث .

وقد أجمع الخبراء الذين قابلتهم على أنه بالنسبة لاستصلاح الصحارى تأتى مشكلة « الإنسان وعاداته المتوارثة » فى رأس قائمة المشكلات حتى قبل إيجاد المياه نفسها . وقولهم هذا معقول والمثل يقول « الإنسان أسير عاداته » كثيراً ماوقف عقبة دون استنباط المياه ، و إن ما دأبوا عليه من استئصال الأشجار و إتلاف نموها الطبيعى على سطح الأرض لما يجعل مياه الأمطار تنحدر بلا عائق إلى البقاع البعيدة ، على عكس ما لو قابلت فى طريقها الأشجار فانها تعوقها حتى تتمكن من النضج إلى باطن الأرض فتغذى الينابيع الجوفية مما قد يظهر أثره فى إحياء واحة قصية على مسافة أميال عديدة .

وإذا فكرنا فى الصحراء من وجهة سقوط الأمطار ، لايفوتنا أن نذكر ما يصر الفرنسيون عليه من « إننا نسير فوق المياه » وعلى ذلك لانضيق معنى « المياه » ونقصره على الساقطة فى صورة الأمطار — وإن كان هذا أمراً نافعاً نفعاً جليلا — لكن هناك عدا ذلك عروق أو أنهار جوفية من المياه تحللت من مياه الأمطار فى الطبقات المسامية الشبيهة بالاسفنج حتى غاصت فى الأعماق وكونت تلك الأنهار ومثال ذلك « البحيرة البيضاء » وهى البحيرة الشاسعة الإمتداد تحت الصحراء الكبرى ، وهنا تصبح مهمتنا أومشكلتنا هى « كيف نستنبط هذه المياه ونجعلها تسقى سطح الأرض ؟ » وهذه المشكلة حلها رهن دق الآبار الإرتوازية التى قد تغوص إلى أعماق تشبه أعماق آبار البترول ، لكن البترول « ذهب سائل » أما الماء فهو « الماء وحسب » وسوف يصبح إذا نزلت آباره أكثر من بضعة أقدام قليلة عزيزا جدا وغالى الثمن إذا أدخل فى نفقات الرى .

ولا يفوتنا أيضاً أنه حتى مياه السيل الجارف يمكن ضبطها بالسدود واستخدامها وما الوديان كلما قصرت آجالها ، إلا أنهارا تتدفق سريعا إلى البحر وتذهب سدى لا يستفاد منها الفائدة الممكنة كلها . أما إذا أقيمت فى مجاريها السدود أمكن ضبطها وتوزيعها على السطح الواسع لإنتاج المحاصيل .

ومما يناسب هذا البحث الإفادة من أساليب الرومان القدماء الذين شادوا الصهاريج وسدود التحويل وري المشارف . والحق إنك إذا قلت لرجل يخوض فى كثيب رملى « إنك تمشى فوق الماء » لما فهم ذلك بسهولة ، ولاحتاج إلى سعة فى العلم والأفق . لأنه عليه أن يعلم قبل كل شىء أن الكثبان لا تتقدم فوق هراسات بل أنها هى الهراسات ، وليس ذلك بالتنقل بكتلتها لكن بهبوب الرياح عليها وإثارتها فى صورة الغبار أو إذا شئت أن تتصورها أمواجا رملية بطيئة السير تتدحرج فوق بعضها البعض ، وإن لها قاعدة أو هدفا تنتهى إليه فإما إلى تكوين الصخور أو طمر أدغال النخيل أو تكتل الرمال واحتباسها فى مكانها .

وإذا أمكننا بواسطة « الفجرات » مثلا وهى الآبار الأفقية أو بأى تدبير شبيه

بها ، أن تستنبط المياه من الكثبان الرملية ، لأمكننا الحصول على موارد مياه فى الصحراء الرمليـــة نفسها . وإلا فيمكننا أن نستخدم وسائل شبيهة بكثيان الحصى المشاهدة فى « النقب » وهى التى تكثف الرطوبة الجوية فى جو خال من المطر خلوا تاما . ولعل « عبقرية العصر » تستطيع أن تخترع « كثبانا جاهزة لتكثيف الندى » وتسير جنبا لجنب مع مشكلة إيجاد المياه مشكلة «التملح» salting ، وكثيرا ما يكون ذلك لمجرد سوء الحظ فمثلا تحفر بئر فتصادف صخرا من الملح فى حين أنه على مسافة بضع مئات من الياردات يمكن العثور على آبار عذبة ، لا يحدوها سوء حظ جارتها المالحة . ولكن هـذا لا يحل مشكلة العيون الطبيعية مثل عين تاغت Taghit (١) التى من طبيعة مياهها أن ترسب باستمرار على التربة نسبة من الملح بعد أن تجف بالتبخير ، مما يؤول إلى أن تصبح التربة مالحة وهذا يستتبع أن المياه الجارية فوق هذه الطبقة تصير مالحة أيضا .

وقد شهدت فى تونس طريقة لتحامى تأثر المياه العذبة بمرورها فى هذه الملاحات وهو بناء قنوات بالأسمنت المسلح و إعدادها لمرور المياه العذبة فيها دون أن تمس تربة الملاحة ، ولكننى واثق كل الثقة بأن الكيمائيين إذا أعاروا هذا الموضوع مايستحقه من العناية أمكنهم أن يبتكروا طريقة لتجريد مياه هذه العيون الطبيعية حال خروجها من العين من الأملاح الزائدة ، وهذا من قبيل ما يحصل عادة فى المنازل أو المصانع من إزالة عسر المياه ، والراجح أن الوصول إلى حل هذة المشكلة لا يكون فى محطة تجارب قائمة فى الصحراء ، بل فى معامل كيمائية مجهزة على مسافة آلاف الأميال من هذه العيون المالحة ، ولعل ذلك يتم فى إقليم مظير مثل لانكشير، حيث يعنى الكيمائيون على الدوام بمعالجة المياه لتلائم صناعة المنسوجات القطنية .

و يرتبط بهذه المشكلات مشكلة توفر «الوقود» ، لأنه ليس من العدل أن يلوم شخص البدو الرحل إذا عمدوا إلى قطع الأشجار أو الاحتطاب ليحصلوا على الوقود لإنضاج طعامهم أو ليصطلوا من قارس البرد . فإن الصحراء الكبرى أعظم اتساعا

---

(١) مرت فى جنوبى الجزائر (المعرب) .

وأشد برداً من جزيرة صغيرة مثل قبرص ومن الإسراف المعجز أن يزود أولئكم البدو بمواقد زيتية ، وأمدادهم بزيت البترول اللازم لتشغيل هذه المواقد .

لذلك وجب على واضعى الخطط لغرس الأشجار فى الصحراء مهما داعبهم الأمل فى ذلك ، أن يضعوا نصب عينهم هـذه الحقيقة وهى ضرورة لجوء البدو إلى هذه الأشجار و إتلافها للدفء ولطهو طعامهم .

واعتدنا أن نسفه فكرة إعداد المواقد الشمسية ليأسنا من جو بلادنا الذى لا تسطع فيه الشمس و إن سطعت فنى أوقات متقطعة ، وهذا على عكس الأحوال فى الصحراء ذات الشمس الساطعة على الدوام ، فهى تفرغ « الطاقة » فى جميع ساعات النهار وعلى مدى فصول السنة بدون انقطاع ، لذلك وجب اتجاه الأنظار إلى هـذا الينبوع الغزير اتجاها جديا .

وقد تمنى أحد رجال العلوم لو أن المنكبين على التجارب الذرية تخلوا عنها بضع ساعات خصصوها لدرس الشمس وتفهم طرق الإستفادة من الطاقة الممكن استمدادها منها لو فعلوا ذلك لاستطاعوا أن يخترعوا أجهزة تكفل لسكان الصحراء الدفء فى الليالى القرة وتعين على دق الآبار واستنباط المياه من الأعماق .

ولا يفوتنى أن أذكر حيوانات الصحراء ، وأن أعترف بأننى لم أقدر أهمية الحيوانات فى استصلاح الصحارى حتى رأيت بعينى آثار المعيز فى استئصال النباتات فتتكون الصحارى أو تزداد اتساعا ، حقا إنه لم يغب عن ذهنى قط الجمل ومزاياه فى الصحراء ولكن لم يخطر على بالى أن هناك دواب وأنعاما أخرى يربونها لتعين على العيش فى الصحراء . لذلك أصبحت أعتبر علماء إكثار الحيوانات وانتخاب سلالاتها فى عداد « رجال ذللوا الصحراء » مثلهم فى ذلك مثل علماء الطبيعة العاملين على تثبيت الكثبان الرملية أواستنباط المياه . ذلك ما كشفه إطلاعى على مراكز تربية الحيوانات فى سيدى المصرى و برج العرب و بغداد حيث وجدت المشرفين على تلك المراكز ينتجون بخبرتهم مقادير مضاعفة من اللحم واللبن والبيض ، مع عدم زيادة مقادير العلف والطعام عما تستهلكه دواب أخرى غير منتخبة أو غير مخدومة علميا .

ولا يحسن بنا أن نغفل عما تؤديه الدواب من تحسين فى التربة بتركها السماد الحيوانى فيها .

وأخيراً وليس آخراً يأتى موضوع الأشجار والآجام والحشائش ، فيحسن بنا — كما يستنتج من شكوى فك ميتلاند Vnd وأسفه — أن نكف قليلا عن الزعم بأن زراعة الأشجار فى الصحراء مضيعة وحمق ، فإن الكثير جدا من الخير ، يمكن القيام به من هذه الناحية ، ليس فقط لاسترجاع الغابات إلى ما كانت عليه قديما بل لزيادتها « وتوسيعها » ففى وسعنا الآن — وهو ما لم يكن فى وسع أسلافنا — أن نجلب من القارات الجديدة فى أمريكا واستراليا ، أشجارا لم تكن معروفة من قبل وتأقلمت فى صحارينا حتى استطاعت أن تغوص فى الأعماق وتستمد غذاءها وسقاءها من التربة وهو ما لا يتيسر لها فى الجو الطلق ، أو حيث تستطيع أن تختزن الرطوبة فى أوراقها اللحمية مثل شجر الصبار الكاكتس وكما استطاع علماء تربية النبات أن يولدوا أنواعا من القمح صلحت وجادت فى بلاد مثل كندا وسيبريا مما كانت القواعد القديمة من معايير درجات الحرارة والمطر لا تصدق بإمكان حدوثه ، فعلى هذا النهج يمكنهم أن يوجدوا سلالات جديدة بأن « يهجنوا » أشجارا ونباتات تجود فى بيئة الصحراء .

ولا يمكن القول بتفوق وامتياز « طريقة بعينها » لأن البيئات تختلفه وتختلف باختلافها المشكلات ، فإذا أحسنا درس كل بيئة أمكننا أن نحسن « ملاءمة » طبيعتها الخاصة .

وأول واجب يتطلبه الموقف منا هو ألا ننظر إلى الصحراء كما نراها فى الأطلس فضاء ومواتا لاخير فيه ، بل نذكر أنه بينما يوجد فيها هذا الموات الذى لا خير فيه يوجد فى بعض جوانبها أمل كثير ! وأننا إذا صحت عزيمتنا على تدبير الطعام للشعوب الجائعة وجب علينا معالجة تلك الجوانب من الصحراء التى تبشر بالخير .

ومما يعيننا على الافادة من الصحراء ، أن ندرس ونحقق ما أمكن أسلافنا أن يجنوه منها ، وعلى الأقل فى الصحارى التى زرتها أنا المتخلفة عن حضارات دارسة ،

كانت هى مهد ثقافتنا وحضاراتنا الحية ، إذا فحصنا الموقف وحققناه ستبين لنا أن الكثير من المعايير والمقومات فى حضارتنا الغربية الحالية موروث عما نسميه «الصحارى» فوجب علينا إذا أن نحاول أن « نرد الأشياء إلى أصولها » وأن نعترف بأننا فى محاولاتنا استصلاح تلك الصحارى لسنا إلا موفين لدين قديم علينا . وشعورى هذا هو الذى حدا بى أن أجعل الكثير من هذا الكتاب ليس مقصورا على الحدود الضيقة للمهمة العلمية أو المسائل الفنية التى نيطت بى ، ولكنى تعديتها إلى ما قد يظنه البعض تشعبات واستطرادات لأننى أعلم أن من شغلوا معنا بهذه المشكلات يحدوهم الأمل أن يشجعوا أولئكم الشعوب لكى تتابع نظرياتهم وآراءهم الخاصة : وهذه قد تكون فى فنون الجغرافيـة أو التاريخ أو العلوم أو الكتب المقدسة أو الآداب أو الفلك أو النبات أو الشئون العامة الخ . لكن اشارتى إلى هذه العلوم والفنون ليست إلا مفاتيح وعلى المختصين أن يستخدموها بأنفسهم ، مفاتيح لا تزيد عن الإيماءات اللطيفة التى يبديها المرشد أو الدليل لمجموعة من زائريه « وهذا هو ما فُصِلَتْ عنده رأس آن بولين »[1] مثلا Anne Boleyn . فأننى سوف أذكر مدى ما حييت تلك الليلة المقمرة التى كنا فيها فوق « فجوة القصرين » فى تونس عند ما قال لى شارل سومانى Charles Saumane gve أخبرنى بأن هناك عشرة رجال فى الدنيا يؤمنون بأن الصحراء يمكن أن تزدهر — وأن هناك عشرة رجال يؤمنون بأننا يمكننا أن نسترد ما أضاعته حماقات الإنسان — و يومئذ أموت سعيدا !

وكنت أظن أننى لكى أبشره بما ينشده ، على أن أواصل البحث فى الصحارى عشرات الآلاف من الأميال ، ولكنى الآن أستطيع أن أبشره بأن هناك المئين وليس العشرات من النساء ، فضلا عن الرجال ، لا يؤمنون فقط بامكان ازدهار الصحارى ، بل يعملون بقوة و يبرهنون أن الصحراء ممكن أن تحيا وتزدهر !

---

(١) بنت هنرى الثامن ملك بريطانيا (١٥٠٩ — ١٥٤٧) المعرب